الأستاذ الدكتور

حلمى محمد القاعود

فى رياض النبوة

قصة و حديث

(الجزء الثالث)

دار العلم و الايمان للنشر و التوزيع

obeikandl.com

٢٤٢ الشاعود ، حلمي .
ا . ح

في رياض النبوة قصة وحديث ج٣ / علي أحمد الخطيب .- ط١.- دسوق: العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، ٢٠١١م.

١٦٠ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 3-314- 308 – 977 – 978

١. السيرة أ- العنوان .

رقم الإيداع : ١٠٨٩٨.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحـذيـر:

يحظر النشر او النسخ أو التصوير او الاقتباس بأى شكل من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2015

obeikandl.com

الطمع فى رحمة الله -١

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

إن أدنى أهل الجنة منزلاً رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، و مثّل له شجرة ذات ظل ، فقال :

أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة ، فأكون فى ظلها ، فقال الله : هل عسيتَ أن تسألنى غيره ؟

قال : لا و عزتك ، فقدمه الله إليها ، و مثّل له شجرة ذات ظل و ثمر.

فقال : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، و آكل من ثمرها .

فقال الله : هل عسيتَ إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيْرَهُ؟

فيقول : لا و عزتك . فقدمه الله إليها ، فيمثل الله شجرة أخرى ذات ظل و ثمر و ماء ، فيقول : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، و آكل من ثمرها ، و أشرب من مائها .....".

حديث صحيح أخرجه مسلم و أحمد و الترمذى و غيرهم .

....

هذا جزء أول من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . عن أدنى أو أقل أهل الجنة منزلاً أو درجة يوم القيامة . و نحن نعلم أن الناس يوم الحساب ثلاثة أنواع :

الأول: يدخل الجنة بإذن ربه ثواباً على إيمانه و طاعته و التزامه .

و الثانى : يدخل النار جزاء وفاقا لكفره و ظلمه و بغيه .

و الثالث : يبقى على الأعراف ، أى بين الجنة و النار لتقصير هنا أو هناك ..

و هذا النوع الثالث أقرب إلى الجنة لأن الله - جل و علا - صرف وجهه عن النار و كفاه شرَّها و عذابها .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آيات مستفيضة ، نكتفى منها بالإشارة إلى موقف النوع الثالث .

يقـــول تعـــالى : "وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ "(الأعراف : ٤٤-٤٧)

- يقـــول المفســـرون : إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا أهل النار.

وفى الآيات التى قرأناها قبل قليل نجد إشارة إلى الحجاب الذى يفصل بين الجنة و النار ، و يقف عليه أهل الأعراف ، وهو سور ذكر فى آية أخرى .

حيث يقول الله تعالى :

".....فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ "(الحديد : ١٣)

هذا السور يمنع وصول أهل النار للجنة ، و على هذا السور رجال الأعراف يعرفون كلاً من أهل النار و أهل الجنة بسيماهم أى بعلامتهم التى ميّزهم الله بها ، فأهل النار يُعرفون بسواد وجوههم ، و أهل الجنة يُعرفون ببياض وجوههم .

ورجال الأعراف يحبسون على السور حتى يقضى الله فيهم ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، و إذا نظروا إلى أهل النار ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

رجال الأعراف ، ينظرّون دائماً أو معظم الوقت إلى أهل الجنة ، و يرجون ربهم أن يقربهم منها ، وهم بهذا الوضع أو فى أهل الجنة منزلاً ، بحكم أن الله صرف وجوههم عن النار ، و الصرف عن النار يعد رحمة من رحمات الله .

"مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ "(الأنعام ١٦)

فأهل النار يمثلون صورةً يهرب منها الناس جميعاً . و يسعون إلى الإبتعاد عنها و تضم رؤساء الكفر و أتباعهم . الذين ظنوا أن جمعهم للمال و استكبارهم عن الإيمان سيحميهم من العذاب يوم القيامة . ولكن هيهات ! فرجال الأعراف يسالونهم فى توبيخ و تقريع و تهكم مشيرين إلى أهل الجنة .

"أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ....."(الأعراف ٤٩)

و يرزقون ذلك بمخاطبة أهل الجنة : "...ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ "(الأعراف :٤٩)

وفى قصتنا التى يقدمها لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نجد تعبيراً عملّياً أو تطبيقا واقعيا لأشواق أهل الأعراف او أدنى الناس منزلاً من الجنة، لدخول الجنة و الاستمتاع بها ، انطلاقاً من طمعهم فى رحمة الله سبحانه التى وسعت كل شىء .

فتتمثل للواحد منهم شجرةً ذات ظل . مجرّد شجرة تظهر أمامه ، فيدعو ربه ويطلب منه أن يقترب منها ليكون فى ظلها ، فيستجيب له الرحمن الرحيم

و يسأله : هل عسيتَ أن تسألنى غيره ؟

أى هل ستطلب منى بعد ذلك طلبا آخر.

فيقول له : لا و عزتك .

ثم يمثّل له شجرةً ذات ظل ، و فيها ثمر ..أى شجرة أفضل من الشجرة السابقة ، لأن بها ثماراً إلى جانب الظل ، و هنا تتحرك غريزة الطلب و الرغبة فى الزيادة ، فيطلب صاحبنا من ربه أن يقربه منها ، و يستجيب له ، سائلاً إياه : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسالنى غيره ؟

فيقول : لا و عزتك . فيمثل له شجرة أخرى ذاتَ ظلٍ و ثمرٍ و ماء . ولا يتردّد صاحبنا فى الطلب من ربه أن يقدمه إليها .. وحين يحقق طلبه ، يقول له : هل عسيت إن فعلت أن تسالنى غيره ؟

الطمع فى رحمة الله -٢

عرفنا فى الحلقة السابقة من حديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه كيف صوّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – طمع أدنى أهل الجنة منزلاً ممن صرف الله وجهه عن النار، فى رحمة الله، حيث يطمع فى شجرةٍ ذات ظل، ثم شجرةٍ ذات ظلّ وثمر ثم شجرة ذات ظلٍّ و ثمرٍ وماء.

وهنا يسأله رب العزة :

" هل عسيت إن فعلتُ أن تسألنى غيره؟

فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره، فيقدمه الله إليها. فيبرز له باب الجنة.

فيقول : أى رب، قدمنى إلى باب الجنة، فأكون تحت سجاف الجنة فأرى أهلها، فيقدمه الله إليها فيرى الجنة وما فيها.

فيقول : أى رب ! أدخلنى الجنة، فيدخل الجنة، فإذا دخل الجنة قال :

– هذا لى ؟

فيقول الله له : تَمَن، فيتمنىّ، ويذكره الله عزوجل سل من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأمانى.

قال الله : هولك وعشرة أمثاله، ثم يدخله الله الجنة، فيدُخل عليه زوجتاه من الحور العين : فيقولان : الحمد لله الذى أحياك لنا، و أحيانا لك.

فيقول : ما أُعطى أحدٌ مثل ما أعطيت "

صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

....

نرى فى الجزء الثانى من حديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – تكملة لموقف أدنى أهل الجنة منزلة، أو أهل الأعراف الذين صرف الله وجوههم عن

obeikandl.com

النار فاستشرفت أبصارهم و قلوبهم الجنة و أهلها ، و تمنوا أن يكونوا من أهلها ، و يبتعدوا عن أهل النار وملامحهم التى تذكّر بالسيئات و الآثام .

لـو أن أهـل الأعـراف تفوقوا فى حسناتهم ، لدخلوا الجنة بفضل الله ، و صاروا بمنأى عن هذا الوضع المقلق الذى يجعلهم يرون الجنة ولا يستطيعون الدخول إليها ، ويشاهدون النار وما يجرى فيها من عذاب ؛ وهو ما يثير فيهم الندم و الحسرة بسبب تقصيرهم .

وقد رأينا من تقع مكانته فى أدنى الجنة ، أى قريبا منها ، كيف يطمع فى رحمة الله ، و يطلب المزيد . و كلما حقق له الخالق جل و علا رغبة تتصوّر له ، تمثلت له رغبات أخرى يطلب تحقيقها ، مع أنه فى كل مرة تتحقق فيها رغبة يقول لربه " لا و عزتك لا أسألك غيره".

لقد حقق له أولا رغبته فى الجلوس تحت شجرة ذات ظل ، وكان قد قرر ألاّ يسأل ربه شيئاً آخر بعد تحقيق هذه الرغبة و يتكرر الأمر حين يرغب فى شجرة ذات ظل و ماء وشجرة ذات ظل و ثمر وماء .

ويقول له ربه : هل عسيتَ إن فعلتُ أن تسألنى غيره ؟

فيقول : لا و عزتك ، لا أسألك غيره . وبعد أن ينال المراد ، يُفترض أن يكف عن الطلب . ولكنه لا يكف و يطلب ماهو أكبر من الشجرة و الظل و الثمر و الماء .

إنه يطلب الجنة نفسها : أى رب قدمنى إلى باب الجنة ، فأكون تحت سجاف الجنة فارى أهلها ".

إنه يتمنى أن يقترب من الباب ، ليكون تحت حافة الجنة أو السجاف وهو الإطار أو الشريط الخارجى الذى يظلل الباب .. ولكن الرحمن الرحيم يفاجئه بتحقيق ماهو أكبر من طلبه : يقدمه إلى الجنة ليرى أهلها وما فيها .

ولكن هل تتوقف المطالب من أدنى أهل الجنة منزلة ؟

إنها لا تتوقف ، فالطمع فى رحمة الله لا حد له ، ورحمة الله قريب من المحسنين ورحمته وسعت كل شىء ، ونجد طلباً أكبر من كل ما سبق ، حيث يطلب أدنى أهل الجنة منزلةً دخولَ الجنة ومشاركة أهلها : رب أدخلنى الجنة ، فيدخل الجنة . وتدهشه المفاجأة فإذا به يسأل : هذا لى ؟

وتكون الإجابة تعبيراً عن سعة الرحمة و امتدادها : نعمْ .

أى إن الحق سبحانه يطلب منه هذه المرة أن يطلب المزيد ، ويتمنى ما يريد حتى تنقطع به الأمانى ، أى لا يجد أمنية فى ذهنه أو داخلها نفسه يريد تحقيقها . فقد تحققت جميعاً بفضل الخالق الأعظم وصاحب الكون وما فيه جل شأنه وعظم جاهه .

إنه يحقق له ما يريد وعشرة أمثاله ويدخل الجنة برحمة الله .

ثم تدخل عليه زوجتاه من الحور العين – فى مفاجأة لا يتوقعها ولا ينتظرها.. وليست المفاجأة فى دخولهما فحسب ، ولكن فيما يقولانه حمداً لله وشكراً على نعمائه حيث تقولان : **الحمد لله الذى أحياك لنا ، وأحيانا لك** .. أى خلقك لنا وخلقنا لك ، وضمنا فى دار النعيم الدائم الخالد إلى ما شاء الله .

إن هذه القصة الشائعة تحثنا على الأمل فى رحمة الله ، وعدم اليأس من رحمته . وتدفعنا دفعاً إلى معالجة تقصيرنا وقصورنا بكل ما نستطيع ، فكلما أكثرنا من الحسنات ازداد أملنا فى المولى سبحانه ودخول جنته والبعد عن النار والتحرّر من حبس الأعراف ووضعه القلق ..

ولا شك أن زراعة الخير فى الدنيا سيكون حصادها الجنة فى الآخرة بإذنه تعالى : "وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ "(آل عمران . ١٣٢-١٣٤)

القول و الفعل

عن أسامة بن زيد – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقول :

" يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتنزلق أقْتابُ بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرّحى .

فيجتمع إليه أهل النار . فيقولون :

يا فلان ، مالَكَ ، ألم تكن تأمر بالمعروف ، و تنهى عن المنكر ؟.

فيقول ، بلى ، كنت آمر بالمعروف ، ولا آتيه ، و أنهى عن المنكر و آتيه "

حديث صحيح ، أخرجه البخارى ومسلم .

....

هذه قصة قصيرة جداً ، ولكنها طويلة الدلالة ممتدة المعنى فى كل زمان ومكان إذ إنها تعبّر عن آفة شائعة بين الناس ، وهى عدم تطابق القول مع الفعل أو الإنفصام بين القول و الفعل .

و هذه الأفة مرفوضة فى الإسلام ، و يحذر منها القرآن الكريم فى أكثر من مناسبة ، فيقول الحق سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ "(الصف ٢-٣)

ثم إنها تتحول إلى سلوك مذموم يودى بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار ، لأن صاحبه تحول إلى " منافق" ، يقول فى العلن غير ما يخفى فى الباطن .

"وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ "(البقرة ١٤-١٦)

و تصل هذه الآفة إلى درجة الخطورة حين يأمر المصاب بها الناس بالمعروف ولا يفعله ، و ينهاهم عن المنكر و يمارسه ، و لذا يصوّره الرسول – صلى الله عليه وسلم فى القصة التى يتضمنها الحديث الشريف تصويراً حيّاً مؤثراً ، يمثّل عبرة لمن يعتبر ، حيث يؤتى به يوم القيامة ، و يلقى فى النار ، أى إنه من أهل النار .

وحين يدخلها تخرج أمعاؤه من بطنه ، و تمتد أمامه ، وهو يدور وهى متصلة به فكأنه الحمار المربوط بحبل طويل إلى الرّحى يلف حولها ليحرّكها وهى ثابتة فى مكانها أو كما قال الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – تندلق أقتاب بطنه – أى تخرج الأمعاء من بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

والرحى من الأدوات التى كان يستخدمها الفلاحون منذ القدم حتى وقت قريب ولعلها مازالت موجودة فى بعض القرى و تتكون من حجرين مدوّرين ، يوضع أحدهما فوق الآخر الذى له قائم أو عمود فى مركزه يجعله يدور حوله ، و يوضع بينهما الحب الذى يراد طحنه .

و التشبيه بالرحى يأتى لقربه من الناس آنئذ ، فالدى خرجت بطنه و امتدت ويدور بها فى النار ، يشبه دوران الحمار فى الرحى ، حيث يحركها لتؤدى وظيفتها فى طحن الحبوب من قمح و شعير و غيرهما .

إن هذا المنظر الذى يكون عليه الآمر بالمعروف ولا يأتيه ، و الناهى عن المنكر و يفعله ، يشدّ أهل النار ، و يجعلهم يتساءلون :

يا فلان . مالك . ألم تكن تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر ؟

إنهم يستغربون ، أو يندهشون لوجوده بينهم ، فمن المفترض أن مثله لا يدخل النار وقد استجاب لمنهج الإسلام فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ،

كما يقول تعالى : "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ....."(آل عمران : ١١٠)

وكما يقول أيضا : "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(آل عمران : ١٠٤)

ولكن صاحبنا ، كان يقول غير ما يفعل ، و يطبق عكس ما ينادى به ، فكان مثله مثل بنى إسرائيل الذين أمروا الناس بالبر ، و نسوا أنفسهم ، و أشار إليهم الحق سبحانه بقوله : "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "(البقرة ٤٤)

و صاحبنا هو الذى يعنيه الشاعر بقوله :

لا تنـه عـن خلـق و تـأتى مثلـه ... عـار عليـك إذا فعلـت عظـيم

إن منهج الإسلام يقوم على المطابقة بين القول و الفعل ، بين الاعتقاد و السلوك و الذين يظنون أن الشكل يكفى عن الجوهر واهمون ، و لعل الحكمة الشعبية عبّرت عن ذلك منذ زمن بعيد حين **قال البسطاء : " ربنا رب قلوب "** ..

أى إن السلوك لا يعبر بالضرورة عما فى القلب بالضرورة .

إن من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، مقصر فى حق نفسه و حق الإسلام و المسلمين ومن ينهى عن المنكر و يفعله ظالم لنفسه و للإسلام و المسلمين ، و لذا كانت عقوبته شديدة يوم القيامة ، لدرجة أن تخرج أمعاؤه من بطنه ، و يدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

إن خيرية الأمة الإسلامية تقوم على الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و هذه الخيرية تتحقق بالتنفيذ الصادق المخلص ، أما التناقض أو الفصام بين القول و الفعل فليس من الإسلام فى شىء .

****** ****

دعاء السفر عند الحج

قال ابن جُريج : أخبرنى أبو الزبير : أن عليا الأزديّ أخبره أن ابن عمر علمهم : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر ، كبّر ثلاثا ، ثم قال : "سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ"(الزخرف : ١٣-١٤)

اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البّر و التقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، و اطْوِ عنّا بُعده . اللهم ، أنت الصاحب فى السفر ، و الخليفة فى الأهل .

اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، و كآبة المنظر و سوء المنقلب ، فى المال و الأهل ".

و إذا رجع قالهن ، وزاد فيهن : " آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون " أخرجه مسلم .

....

يمثل السفر بصفة عامة مشقة للناس ، وخاصة المرضى وكبار السنّ وأصحاب الضرورات ، والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا من خلال ما رواه ابن عمر – رضى الله عنهما ، كيف نبدأ السفر بالدعاء ...

و الدعاء كما نرى فى العبارة هو الطريق لرضا الله ، و إذا رضى الله عن عبد يسّر له أمره ، وسهّل له الصعب ، و حقق له ما يتمناه :

"وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ....." (غافر:٦٠)

"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "(البقرة ١٨٦)

و يبدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – دعاءه ، منذ أن يرتقى راحلته أو ناقته التى يستوى فوقها إيذاناً بالشروع فى السفر إلى الحج ، فإذا استوى على بعيره قرأ الآيتين الكريمتين من سورة الزخرف "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ" ، وفيهما تنزيه لله و تسبيح له ، فهو الذى سخر لنا الركائب التى نركبها سواء كانت حيواناً – كما كانت فى الزمن الماضى و لم تزل فى الزمن الحاضر ، أو اختراعاً اخترعه الإنسان قديماً و حديثاً مثل السفن أو البواخر والطائرات و الأقمار الصناعية ، فضلاً عن القطارات و أشباهها و السيّارات المتنوعة ؛ فلولا التسخير الإلهى لهذه الوسائل الحية أو الآلية لما استطاع الإنسان أن ينتقل بسهولة و يسر وسرعة إلى الأماكن البعيدة ، ولذا كان على المسلم أن يتذكر تلك النعمة العظيمة التى أنعم الله بها عليه ، وذلّل له هذه الركائب ليصل إلى أماكن الحج أو غيرها . ويجب أن يكون هذا التذكر قائما على تسبيح الله و حمده و تنزيه ، و الإيمان بالعودة إليه أو الانقلاب إليه بعد انتهاء الحياة الدنيا .

و يعلمّنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – كيف ندعو بعد أن نقّر للمدعو بالعبودية و التنزيه و القدرة المهيمنة على الكون ..وهو دعاء يتفق مع طبيعة المسلم فى حركته و سكونه ، وعلنه و سرّه ، فيقول : " اللهم ، إنا نسألك فى سفرنا هذا البّر و التقوى" و البرّ اسم جامع لكل أنواع الخير و المعروف ، و التقوى هى الخوف من الله فى السرّ و العلن أو هى كما عرفها الإمام علىّ – رضى الله عنه – الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل و الرضا بالقليل و الاستعداد ليوم الرحيل ".

فالحاج أو المسافر يطلب من ربه أن يمنحه الخير ، و يوفقه إلى التقوى وهو سائر فى طريقه إلى الحج حيث يؤدى الفريضة أو هو مسافر إلى مكان ما ليؤدى عملاً أو يزور أهلاً أو قوماً ، و يعطف على ذلك الطلب الرجاء فى عمل ما

يرضى الله ...وتلك آية المسلم الذى يتحرك بالخير و المعروف و يعيش من أجلهما طمعا فى عفو الله ورضاه .

و لأن السفر ، حتى لو كان بأسهل الوسائل و الطرق ، فيه مشقة و عناء و جهد كبير ، فإن المسافر المسلم ، يطلب من ربه سبحانه الذى سخر له الوسيلة ، أن يهوّن عليه السفر وما فيه من مشقات و معاناة و متاعب " اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده " فتهوين السفر جعله سهلا و ميسراً ، و اطوعنا بعده ، أى اجعله قريباً ، ولا تجعله بعيداً فكلما بعدت المسافة ازدادت الشقة و تضاعفت المتاعب ، و من ييسّر الله سفره يقرّب إليه المسافة البعيدة ، فلا يستشعر ثقلها و صعوبتها ..و نحن نعلم أن المشرّع الإسلامى أجاز للمسلم المسافر سفرا بعيداً أن يقصر الصلاة و يجمعها ، و يفطر رمضان وفقا لضوابط يعلمها الفقهاء والمتخصصون .

و كما يعترف الحاج أو المسافر فى بداية دعائه بهيمنة الخالق و قدرته على كل شىء ، فهو يدعوه ليكون صاحباً فى السفر يرعى المسافر ، و أن يخلفه فى أهله و أسرته ليرعاهم و يتولى أمرهم .. فمن غيره يكون نعم الصاحب ، و نعم الخليفة ؟ لا أحد .

ثم يدعو الحاج أو المسافر كما دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر – أى شدّته و مشقّته ، و كآبة المنظر ، و سوء المنقلب فى المال و الأهل ".

و الكآبة و السوء من الأمور التى تزعج الإنسان عموماً ، فكيف بالمسافر الذى يتمنى رؤية ما يبهج ، و يعود فيجد ما يسّره فى ماله و أهله ؟ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا أن نردد هذا الدعاء و نحن نبتدئ السفر ، و نقوله ونحن نعود منه ؛ مع زيادة قوله : آيبون أى عائدون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون " ؛ مما يعنى أن المسلم يرتبط بربه دائما فى البدء و المنتهى .

الحج المبرور

عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – أى العمل أفضل ؟

قال:"إيمان بالله ورسوله" ، قيل : ثم ماذا ؟ قال :"الجهاد فى سبيل الله "

قيل : ثم ماذا ؟

قال :" حج مبرور" متفق عليه .

....

يقدم لنا هذا الحديث الشريف قصة قصيرة حوارية بين سائل و مسئول. السائل مجهول ، و يأتى الكلام عنه بصيغة المبنى للمجهول – أما المسئول فهو النبي – صلى الله عليه وسلم .

و يبدأ السؤال الأساسى الذى يتفرع عنه سؤال من جنسه : أى العمل أفضل ؟

والسؤال كما نرى اجتهاد من المسلم السائل ، عن أفضل الأعمال كى يمارسها أو يطبقها فى حياته الواقعية أو اليومية .

و تبدأ إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالحديث عن الجهاد فى سبيل الله بوصفه أفضل الأعمال التى تقرب إلى الله.

و الجهاد هو عماد الحياة الإسلامية الظافرة ، سواء كان الجهاد الأصغر وهو القتال ضد الأعداء ، أو الجهاد الأكبر وهو القتال ضد التخلف و الفوضى والكسل و الظلم و الفساد و الطغيان و الاستبداد و الضعف و الجهل و المرض و البؤس و الشقاء و التشرد ...و غير ذلك من مظاهر لا تصنع مجتمعا قوياً ولا حضارة فعالة ..

الجهاد الأصغر وسيلته السلاح و التدريب و الذخيرة و الخطط العسكرية...

أما الجهاد الأكبر، فوسيلته أو وسائله مختلفة، فهى تعتمد على العقل والفكر والعلم والثقافة والإبداع والعمل الدائب المنظم المستمر المتقن القائم على التعاون والتناصح والتفاعل الحىّ مع الغير..

هذا هو أفضل الأعمال التى أجاب عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – سائله عن أى الأعمال أفضل ؟

أما السؤال الثانى، فكانت إجابته من الرسول – صلى الله عليه وسلم

" حج مبرور"

والحج المبرور هو الذى لا يرتكب فيه صاحبه معصية أو ذنباً.

إذاً الحج المبرور من أفضل الأعمال التى يجب أن يسعى إليها المسلم ليرضى ربه وهناك وجه شبه بين الجهاد والحج، فكلاهما يقتضى جهداً وعطاءً، وكلاهما فيه مشقة وعناء وحرمان .. والذى يصبر على الحج ومصاعبه، مثل المجاهد الذى يصبر على متاعب الحرب وقسوتها ..

بيد أن " الحج المبرور " الذى تحدث عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم هو الحج الخالص لوجه الله، حيث ينصرف المسلم بكليته إلى مولاه لا يشغله شىء عن جلال الموقف العظيم الذى يقفه وسط الحشود الهادرة والزحام الصعب متجرداً من المحيط والمخيط، ممنوعاً من التعطر والتأنق، متفرغاً للصلاة والعبادة، وقد يعمل بالتجارة ابتغاء من فضل الله، ولكنه فى كل الأحوال، لا يستطيع أن يقرب امرأته أو يقص شعره أو أظفاره .. فهو إذاً كأنه يجاهد أو فى مرتبة الجهاد.

ووصف الحج بالمبرور، ليخرج منه الحج الآلى أو الشكلى الذى يؤديه صاحبه دون أن يتأثر بمناسك الحج قلبيّاً ووجدانيا وشعوريّاً، فلا يكون متصلاً بحبل الله ولا مرتبطا بذكر الله .. هذا الحج الآلى يشبه ذلك الحج الذى يسعى

صاحبه إلى مراءاة الناس ، أو الحرص على شراء لقب يناديه الناس به فى بعض البلاد ، و يحقق له الجاه والسلطان على أمثاله من عشيرته وقومه .

و الأهم من ذلك كله أن الحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه معصية أو ذنباً ، و كيف نتصور مسلما ذهب إلى الحج يعبد الله و يتطهر من الذنوب ، فيرتكب ذنوباً جديدة أو معاصى أخرى تضاف إلى سجلّه الملىء بالذنوب و الخطايا ؟

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول فى حديث متفق عليه .

" من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "

و الرفث و الفسوق من الأمور المنهى عنها لأنها تخالف الإسلام ، و تدخل تحت دائرة المعاصى التى تفسد الحج و تجعله غير مبرور .. ولذا فإن الحج المبرور هو الذى يعيد صاحبه إلى الطهارة و النقاء و الصفاء مثل الطفل الوليد الذى لم يرتكب إثما ولا جريمة .. وأيضاً فإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة كما يقول حديث نبوى آخر متفق عليه .

لا شك أن الحج ليس مجرد مناسك يؤديها المسلم لتسقط عنه فريضة تعد الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولكنه إخبات و خوف من الله و صبر على البلاء و إقامة الصلاة و إنفاق فى سبيل الله .

وصدق الله إذ يقول :

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ " (الحج : ٣٤-٣٥)

**** ****

الحج مرّة واحدة

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : "يأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجّوا"فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله؟

فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو قلت : نعم لَوَجَبَتْ و لما استطعتم " ثم قال :" ذرونى ما تركتكم ؛ فإنما أهلك من كان من قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن شيء فدعوه " رواه مسلم

....

يحكى أبو هريرة رضى الله عنه قصة فرض الحج على المسلمين مرة واحدة كما يفهم من سياق الحديث الشريف الذى جاء فى خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم.

كما نتعرف من الحديث الشريف على ما ينبغى أن يكون بين السائل و المسئول فى مقام التشريع و التقنين حتى لا يكون هناك ما يرهق المسلم و يثقل على كاهله .

وفى الخطبة النبوية التى أشار إليها أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم – قال " يأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا".

وهذا النداء للمسلمين يؤكد ما ورد فى القرآن الكريم و الحديث الشريف حول فرضية الحج بوصفه ركنا من أركان الإسلام الخمسة .

فقد قال الله تعالى :

".....وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ" (آل عمران :٩٧)

وقال تعالى : "وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ....." (البقرة : ١٩٦)

و قال تعالى : "ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ" (البقرة :١٩٧)

و هناك الحديث الشريف المشهور :" بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، و إقام الصلاة ، و إيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ".

و هذا يعنى أن الحج ركن من أركان الإسلام ، يؤديه كل قادر عليه ، بما تعنيه القدرة من مال وعافيه و أمن فى الذهاب و الإياب ، ومن يتخلف عن أدائه وهو قادر عليه فقد باء بالخسران المبين .

و يكشف لنا الحديث الشريف عن لهفة المسلمين إلى التعرف على دينهم مما يدفع بعضهم إلى كثرة الإلحاح بالسؤال على النبي – صلى الله عليه وسلم لمعرفة أصول دينهم وهو ما قد يوقعهم فى الخطأ ..

فعندما سمع الناس خطبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – قام رجل ليسأل : أكل عام يا رسول الله ؟

ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – سكت ، حتى كرر الرجل سؤاله ثلاث مرات ، فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – " لو قلت نعم لوجبت ولما

استطعتم " أى إنه لو قال نعم فى كل عام ..لصارت واجبة على المسلمين كل عام ، وهو ما يفوق طاقتهم وقدرتهم و لذا يعلم الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسلمين درساً مهماً :

" ذرونى مـــا تـــركتكم " ، أى اتركونى دون سؤال ، طالما تركتكم دون إفاضة فى الكلام أو فى الحديث .. حتى لا تكونوا مثل أمم أخرى سبقتكم ، هلكوا بسبب أسئلتهم الكثيرة لأنبيائهم ورسلهم ، و اختلافهم عليهم ..

وقد كان بنو اسرائيل يكثرون من الأسئلة لأنبيائهم و يختلفون عليهم ، وفى سورة البقرة نموذج للإلحاح بالأسئلة على سيدنا موسى عليه السلام فى أمر البقرة المشهور ، وما سبقها من مواقف و ممارسات و أقوال ، انتهت بهم إلى قسوة القلب ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة .

" ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (البقرة ٧٤)

وهـو مـا يعـنى أن تكليف المسلمين بالحج مرة واحدة ، هو رحمة بهم و تيسير عليهم ، خاصة و أن الحكمة الإلهية تسبق المفاهيم المحدودة للبشر فى كل زمان و مكان . فهذا الصحابي الذى كانت مكة بالنسبة له قريبة أو يمكن الوصول إليها كل عام ، لم يكن يدرى أن المسلمين سيتجاوزون المدينة وما حولها ، بل يتجاوزون الجزيرة العربية إلى آفاق الأرض شرقاً و غرباً . و أن أداء الفريضة مرة واحدة فى العمر يصير حلم المسلم فى البلاد البعيدة و الأطراف المترامية .

**** ****

فى حجة الوداع

عن عائشة رضى الله عنها – قالت : خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عام حجة الوداع . فأهللنا بعمرة . ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" من كان معه هدىً فليهلَّ بالحج مع العمرة . ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعا " قالت: فقدمت مكة و أنا حائض . لم أطُفْ بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، فشكوت ذلك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم : فقال :-

" انقُضى رأسك ، وامتشطى . و أهلّى بالحج ودعى العمرة " .

قالت: ففعلتُ . فلمّا قضينا الحّج أرسلنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم . فاعتمرتُ فقال : هذه مكان عُمْرتك فطاف الذين أهلّوا بالعمرة بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم حلّوا ، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجّهم ، وأما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة ، فطافوا طوافاً واحداً . أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما.

.....

تروى عائشة – رضى الله عنها – قصة حجة الوداع ، وما يتعلق بها فى هذا الحديث النبوى الشريف ، وتقدم لنا بعض الأحكام التى ترتبط بالحج و العمرة، من حيث الإفراد أو القران أو التمتع ، كما تطرح مسألة الظرف الطارىء الذى يعترى المرأة ، ويعرف بالدورة الشهرية أو الحيض ؛ وهى فى طريقها لأداء مناسك الحج أو العمرة أو فى أثنائهما .و أيضا تشير القصة إلى ميقات الإحرام المكانى للعمرة بالنسبة لمن كان فى مكة و أراد العمرة .

و حجة الوداع هى الحجة التى قام بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته ولحاقه بالرفيق الأعلى . و تحكى عائشة رضى الله عنها أنها خرجت مع الصحابة فى رفقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاهلّوا . أى بدءوا أو استهلوا بأداء العمرة قبل أداء الحج . وهنا أرسى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تشريعاً مهّماً بالنسبة للذاهبين لأداء المناسك ، حيث إن من صحب معه هدى. أى ذبيحة ، فله أن يقرن الحج بالعمرة و القران غير الإفراد .

فالإفراد هو أداء كل من الحج و العمرة على حدة ، دون ارتباط أحدهما بالآخر. أما القران فأداؤهما معاً بمناسك واحدة أو شعائر واحدة مقابل ذبح الهدى الذى يأخذه المقرن معه أو يشتريه فى أثناء تأدية المناسك .

و يروى عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحرم من ذى الحليفة إحراماً موقوفاً ، و خرج ينتظر القضاء ، فنزل الوحى وهو على الصفا فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كان معه هدى أن يحّج ، ومن ليس معه هدى أن يجعله عمرة .

وهناك روايات عديدة لهذه المسألة يدور حولها كلام كثير . ليس هنا مجاله و يرجح بعض بالنسبة لعائشة رضى الله عنها أنها أهلّت بالحج . و أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بيّن للناس . أن الجمع بين الحج و العمرة ممكن .

بيد أن العلماء اختلفوا حول الأفضل بالنسبة للإفراد و القران و التمتع فقال المالكية ، إن الإفراد أفضل . أما الحنفية فقد فضلوا القران . أما الشافعية و غيرهم فقد فضلوا التمتع ... وهو أداء العمرة ثم التحلل منها حتى قبيل الوقوف بعرفة ، فيبدأ الحاج أداء المناسك من جديد بعد الإحرام ، وفى القران و التمتع دم ، أى ذبح هدى فى أيام النحر.

و تثير القصة موضوعاً حيوّياً يتعرض كثير من النساء فى أثناء الحج وهو مجيء الدورة الشهرية أو ما يعرف في الفقه بالحيض .. وهذا الحادث يعفي

المرأة من الصلاة حتى تطهر بعد انقطاع الدم ، كما يعفيها من آداء المناسك إلا بعد الطهارة ؛ وقد قالت عائشة أنها قدمت إلى مكة وهى حائض . فلم تطف بالبيت ، ولم تسع بين الصفا والمروة ، وأن هذا الأمر كما نفهم من سياق الحديث قد ضايقها مما اضطرها إلى الشكوى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمرها بذلك بعد انقطاع الدم والتطهر والاغتسال ، فأمرها بنقض شعرها أى تخليله بأصابعها ، ثم تمشيطه ، ثم البدء فى مناسك الحج من طواف وسعى ...ولما انتهت من فعل ذلك ، أرسلها مع شقيقها عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم ، وفيه مسجد "السيدة عائشة " الآن ، ويحرم منه أهل مكة والمقيمون بها عند ما يبدءون العمرة أو الحج ..فيصلّون ركعتى السنة ، ثم ينطلقون إلى الكعبة لأداء المناسك .

و تشير السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن التنعيم " هو مكان العمرة كما علمها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أما الذين نووا العمرة و طافوا بالبيت وبالصفا والمروة ثم حلّوا ، فقد طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم ..و هؤلاء هم المتمتعون أو الذين أفردوا ..أما الذين قرنوا الحج بالعمرة ، فإنما طافوا طوافاً واحداً .

و يبقى أن هذه القصة وقد جاءت من خلال حجة الوداع ، التى اكتمل فيها الدين"..... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...." ؛ (المائدة :٣)

قد رسمت معالم الركن الخامس من أركان الإسلام ، وكيفية النية و أداء الحج والعمرة ، إفراداً أو قراناً أو تمتعاً ..ووضحت كيف تتصرف المرأة حين يأتيها العارض الشهري ..وكل ذلك فى إطار التيسير الإلهى على المسلمين .

**** ****

التلبية وصفتها

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما – أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم كان إذا استوتْ به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهلّ .

فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وكان عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – يقول هذه تلبية رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

قال نافع : كان عبد الله – رضى الله عنه – يزيد مع هذا لبيك لبيك ، وسعديك والخير بيديك لبيك ، والرغباءُ إليك والعمل .

و أخبر بعضهم عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما – قال : تلقفت التلبية من فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر بمثل حديثهم .

(أخرجه مسلم)

....

فى هذا الحديث الشريف نتعرف على قصة " التلبية" التى تعارف عليها الناس طوال أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهم يؤدون فريضة الحج أو واجب العمرة .. فكل حاج أو معتمر يبدأ حجة أو عمرته بهذه التلبية تعبيراً عن استجابته لأوامر ربه وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

و عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – يحكى لنا قصة التلبية كما رآها وسمعها من فم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيخبرنا أنه – صلى الله عليه وسلم كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهلّ .. أى إنه عند بداية إحرامه من الميقات المكانى للحج والعمرة بالنسبة لأهل المدينة ، وهو " ذى الحليفة " وركب راحلته ، أى ناقته التى تحمله من المدينة إلى مكة لأداء الحج

والعمرة . أهلّ أى بدأ ، والاستهلال هو البدء فى كل شىء ، واستهلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبدأ بالتلبية قائلاً :

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

والتلبية معناها الاستجابة أو الإجابة ، ولذا فعندما يلبّى الرسول - صلى الله عليه وسلم - **قائلاً : لبيك اللهم لبيك** .. أى الاستجابة لك يا رب بعد استجابة ، وطاعة بعد طاعة والتزاماً بعد التزام .. كأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - **يعلّمنا** : أن الإسلام هو الاستجابة والطاعة والالتزام ، فليس لأحد أن يخالف عن أمر ربّه ، طالما قبل بالدين الحنيف ، وآمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقبل بالأوامر والنواهى التى وردت فى الكتاب والسّنة ، وهو ما يعنى الاستسلام الكامل والخضوع التام لمنهج الله دون تبديل أو تحريف أو تأويل خبيث؛ كما يحلو لبعض المنافقين ممن طمس الله على قلوبهم وآثروا الدنيا على الآخرة ، وتصوّروا أن الإسلام يشبه النظريات الوضعية أى التى يضعها البشر ، فيفسرونها على هواهم ، ويشرحونها بما يتفق وأغراضهم الدنيوية ولعل هؤلاء هم الذين قصدتهم الآية الكريمة فى قوله تعالى :

".....أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (البقرة : ٨٥)

وتحمل التلبية معنيين مهمين ، يشكّلان العمود الفقرى للإسلام ، وهما : التوحيد ، والإقرار بالعبودية لله .. فالحاج أو المعتمر حين يعلن طاعته لله ، فإنه يقرنها بالتوحيد : لبيك لا شريك لك " والتوحيد هو نفى كل ما عدا الله ، من مخلوقاته أو كائناته التى يتصور بعض الناس أنها يمكن أن تنفعهم أو تضرهم ،

فالذين عبدوا الحكام و الأصنام أو خضعوا للأقوياء أو ذوى الجاه و الأموال ؛ يشركون بالله الذى يملك كل شىء ، و يخضع له كل الخلق و الكائنات وما على الأرض وما تحتها ، و السماء وما فوقها ... إنه الملك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحداً .

و إذا كان التوحيد هو المعنى الأول للتلبية ، فالعبودية هى المعنى الثانى، الذى يقّر فيه المسلم بعبوديته الكاملة لله و نفهم ذلك من قول الحاج و المعتمر إن الحمد و النعمة لك و الملك " فهو المحمود على عطائه ، وهو المشكور على نعمائه التى يهبها لعباده جميعاً يطعمهم و يسقيهم و يمنحهم الصحة و العافية ، و العمل و الأمل، وهو قبل ذلك وبعده صاحب الملك الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ..

لذا كانت التلبية ليست مجرد دعاء أو هتاف ينطق به الحاج أو المعتمر ، ولكنها إعلان حىّ و مباشر عن الطاعة و الالتزام لمالك الملك و صاحب الكون ، بل إن الزيادة التى رآها ابن عمر ، فى تلبيته : لبيك لبيك ، و سعديك ، و الخير بيديك لبيك، و الرغباء إليك والعمل ، هذه الزيادة توكيد لما سبق من معنى التلبية ، فهو يكرر الاستجابة و الطاعة ، ثم يطلب منه المساعدة بعد الإساعدة بقوله " وسعديك" كأنه يقول يا رب مساعدة منك بعد مساعدة كما يسند إليه الخير ، والرغباء و العمل. والرغباء أو الرُّغبَى : تعنى الطلب و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو المقصود بالعمل الحقيقى بالعبادة .

و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو المقصود بالعمل الحقيقى بالعبادة .لقد تلقف ابن عمر التلبية من فى أو فم رسول الله – صلى الله عليه وسلم ونقلها إلى الناس و ساروا عليها حتى يومنا هذا .. فكانت تعبيراً عن إيمان وخضوعاً لخالق الأرض و السماء .

**** ****

الحج .. و التجارة

عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال :

كانت عكاظ و مجنّة و ذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجردوا فى المواسم ، فنزلت

" لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ....."(البقرة ١٩٨)

رواه البخارى

....

هذا الحديث الشريف يحكى أمراً يخص التشريع الإسلامى ، وهو التجارة فى موسم أو مواسم الحج .

وكانت العرب فى الجاهلية تتخذ من مواسم الحج على الطريقة التى كانت سائدة آنئذ ، فرصة لإقامة الأسواق التجارية التى يتكسبون منها ، فضلاً عن إقامة المناظرات الأدبية والشعرية بين الأدباء والشعراء مع كبار النقاد بمفهوم ذلك الزمان ..

كانت عكاظ من أشهر أسواق العرب فى الجاهلية و أعظمها ، وكان موقعها وراء مكان يقال له " قرن المنازل" بمرحلة أى عدة أميال ، ويتبع مدينة الطائف الشهيرة على طريق اليمن . وكان سوقها يعقد أو يقام فى شهر ذى القعدة و يستمر لمدة أسبوعين تقريباً ...

و بعد الانتهاء من سوق عكاظ ، يتركونه إلى مكان آخر فى مكة يقال سوق مَجِنَّة فينصبون السوق أسبوعين آخرين ..أى إن سوق عكاظ تستغرق نصف الشهر الأول من ذى القعدة ، و ذى المجنة تستغرق نصفها الأخر.

وبعدئذ ينتقلون إلى مكان آخر قريب من سوق مجنة يقال له " ذو المجاز " فيقيمون فيه السوق حتى يوم التروية ، قبل يوم عرفة بيوم واحد ، يوافق الثامن من

ذى الحجة ، حيث ينتهى السوق ، و يذهبون بعده إلى منى لإكمال مناسك الحج وفقا لمفهومهم الجاهلى .

قضية الاجار و الكسب فى مواسم الحج ، إذاً كانت عادة جاهلية قديمة موروثة وكانت مصدر رزق لكثيرين ينتظرونها من العام إلى العام . فلما جاء الإسلام أحسّ المسلمون بشىء من الحرج ، و شعروا أن التجارة لا تليق مع أداء المناسك على أساس أن الحج عبادة ، و العبادة لا تتفق مع التجارة ..ولكن الله الرءوف الرحيم بعباده لم يشأ أن يحرمهم من الرزق الذى ينتظرونه كل عام ، فنزلت الآية الكريمة تبيح لهم أن يتجردوا و يكسبوا وهم يؤدون المناسك ويقيمون الشعائر .

قال تعالى :"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ "

(البقرة :١٩٨)

و نجد فى هذه الآية الكريمة ربطاً بين العمل و العبادة ، أو بين التجارة وذكر الله ، وهذا جانب من التيسير الإلهى على عباده ، ليخدم بعضهم بعضاً ، ولنا أن نتصور مثلاً أن كل الحجاج جاءوا لأداء المناسك وحدها ، ووقفوا حياتهم فى أثناء الحج على العبادة وحدها ، فمن ذا الذى يقدم لهم الطعام و الشراب ، و منذا الذى يقودهم فى المواصلات ، ويقدم لهم الخدمات الأخرى التى يحتاجونها فى العلاج و الدواء و الاتصالات و غيرها ؟

لابد إذاً أن تكون هنالك طائفة تقدم هذه الخدمات ، ولا بأس عليها أن تؤدى مناسك الحج ، و تستفيد بالوفاء بهذه الفريضة أو هذا الركن الخامس الذى يجب على المسلم أن يؤديه ليكتمل إسلامه .

ولاشك أن الحج ليس موسم تجارة أساساً بل موسم عبادة . ولكن لتجارة تأتى هامشاً إلى جانب العبادة ، و المشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هى الهدف وهى الغاية حيث يضيعون العبادة ، و المشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هى الهدف وهى الغاية حيث يضيعون ثوابهم ، لأن انشغالهم فى هذه اللحظة ليس بالله ، ولكن بالأموال ، و شتان بين هذا الانشغال أو ذاك .

إن الحج موسم من المواسم المباركة التى تعبر عن وحدة الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض و مغاربها ، و تسقط فيما بينها حواجز العرق و اللون و العنصر والغنى والفقر و الطائفة و المذهب ، و تتلاقى جميعاً حول هدف واحد هو التجرد لطاعة الله سبحانه ، والامتثال لأوامر ، وبالإضافة إلى ذلك تتشاور فيما يعنيها ويهمّها ، وتسعى إلى معالجة مشكلاتها و قضاياها بما يخدم الإسلام و المسلمين .

قال تعالى : "وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ "(الحج :٢٧-٢٨)

و الآية الكريمة تتحدث عن " المنافع" . بصيغة التنكير ، أى مطلق المنافع فليست التجارة وحدها هى المنافع ، ولكن هناك منافع أكثر حين يلتقى المسلم بالمسلم فيتعارفان ، و يعلم أحدهما ما يعانيه الآخر ، و أوجه المساعدة التى يمكن أن تقدم له .

وفى كل الأحوال ، يأتى الفضل الإلهى من خلال التيسير على المسلمين فى التجارة و غيرها "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ..."(البقرة :١٩٨) وهو الفضل الذى لا تحده حدود ، ولا يتوقف .

**** ****

دعاء العودة من الحج و الجهاد و السفر

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال :

كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة إذا أوفى على ثنية أو فدفد كبّر ثلاثاً ، ثم قال :

" لا إله إلا الله وحده . لا شريك له . له الملك و له الحمد وهو على كل شيء قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون . لربنا حامدون . صدق وعده . ونصر عبده . و هزم الأحزاب وحده " أخرجه مسلم

....

إذا كان المسلم وهو يتهيأ للسفر إلى الحج أو إلى مكان آخر ، يدعو دعاء السفر الذى سبقت الإشارة إليه فى مكان آخر، و يبدأ بالآيتين الكريمتين من سورة الزخرف :"....سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ " (الزخرف :١٣-١٤)

اعترافاً بقدرة الله و حمداً على نعمائه ، فإنه بعد عودته من الحج أو الجهاد أو السفر عموماً يدعو الدعاء ذاته الذى قاله فى بداية سفره ، و يزيد عليه . أو يقول ما قاله الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى حديث ابن عمر الذى بين أيدينا ، وهو يحمل المضمون نفسه أو قريباً منه ، و لكنه يركز على نكرة أساسية تربطه بربّه فى كل الأحوال .

و يصف عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – عودة الرسول – صلى الله عليه وسلم ، أو قفوله من الجيوش ، أى رجوعه مع الجيوش بعد الحرب ، أو السرايا أو الحج أو العمرة ، فيقول إنه إذا أوفى أى اقترب أو دخل على ثنية أى منعطف ، أو فدفد أى موضع من الأرض فيه غلظة و ارتفاع ، كبّر ثلاثا ، أى قال : الله أكبر ثلاث مرات ، و التكبير هنا له دلالة على الطاعة و الخضوع لله مالك الملك ، فهو الله الأكبر و الأحق بالذكر فى المواضع التى تبدو مستعصية أو موحشة أو مخيفة ، أو مثل بالنسبة للإنسان حالة تدهشه أو تحيّره.. فالتكبير هنا إعلان عن إسلام القلب لله ، و تعظيم له ، و ترك الأمر بين يديه فيما نعلم أو لا نعلم من أمر الظواهر الطبيعية أو غيرها .

إن السفر فى حد ذاته للجهاد أو الحج أو العمرة أو العمل أو صلة ذوى الأرحام أو حتى السياحة بالنسبة للمسلم هو حركة فى اتجاه خدمة الدين وطاعة الله و إقامة الشريعة و نصرة الإسلام .. و لبعض العلماء رأى لطيف فى هذا السياق، يرى أن

التكبير فى الأماكن العالية يشبه الأذان فوق المساجد ، و الأذان كما نعلم هو تعبير عملى عن تعظيم الحق سبحانه ، وتسبيحه و حمده تعالى ، واعتراف بقدرته و هيمنته ، وتمام نعمته على المسلمين بالنصر و العزة ..

و بعد التكبير ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤكد على المعانى السابقة التى يحملها الأذان ، فهو يعلن التوحيد أو وحدانية الله الذى لا شريك له "لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ، و إعلان الوحدانية ليس مجرد تحصيل حاصل خاصة فى الأزمنة التى يخضع فيها بعض الناس لبعض من أجل المال أو الجاه أو السلطان أو المنفعة الدنيوية الفانية – و لكنه يمثل تذكيراً لهؤلاء و غيرهم بأن الله وحده هو صاحب الحول والطول ، وهو المهيمن القادر ، وهو الذى يملك الضر و النفع ، فينبه الغافلين ، و يوقظ الخاملين ، و يحيى النفوس الراكدة . " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " حماية للقلب و العقل من الاستسلام لمن ظنوا أنفسهم – توهماً وخطأ – أنهم يملكون رقاب الناس أو يستطيعون التحكم فى مصائرهم .

ولعل ما تلا ذلك من الدعاء فى الحديث الشريف يؤكد ما سبقت الإشارة فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : " له الملك و له الحمد وهو على كل شىء قدير " فالوحدانية تقتضى أن يملك الحق سبحانه الكون وما فيه من نعم وآلاء وهو ما يجعله يستحق الحمد على ما أعطى للخلق و يسّر لهم من وسائل الحياة و العيش فهو على كل شىء قدير ، ولا أحد يقدر على ما يقدر ، ولا يملك ما يملك .

و هنا يذكرنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالواقع ، وهو العودة من الرحلة بقوله : " آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون" و آيبون أى عائدون ، تائبون من كل ذنب و إثم ، طالبون للغفران و العفو ، ساجدون لله فى صلاتنا و عبادتنا .. ثم لربنا حامدون .. والحمد هو اعتراف بالنعم الإلهية و شكر للمنعم الذى أنعم بها ، وهو الله جل جلاله .

وفى ختام الدعاء إشارة إلى بعض ملامح نعمه و أفضاله على عباده ، خاصة المسلمين حين يقول – صلى الله عليه وسلم – " صدق الله وعده ، و نصر عبده ، و هزم الأحزاب وحده " مذكرا بما جرى فى غزوة الأحزاب حين هزم الكفار بإرسال الريح والجنود غير المنظورين عليهم فارتدوا مهزومين ، وصدق الله وعده بنصر عبده محمد ، و نشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ومن بعدها العالم كله ..

فالحمد لله وحده ، صدق وعده ، و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ، وهو وعد قائم فى كل زمان و مكان .. طالما كنا آيبين عابدين ساجدين عاملين بأوامره طائعين له .

اتقاء الشبهات

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقول :

إن الحلال بيّن و إن الحرام بيّن ، و بينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه و عرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا و إن لكل ملك حمى ، ألا و إن حمى الله محارمه ، ألا و إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، و إذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب "

متفق عليه وروى بألفاظ متقاربة

....

يقودنا هذا الحديث الشريف إلى ضرورة التحرى و التثبت فى مسألة الحلال و الحرام ، وهى مسألة صرنا أحوج ما نكون إليها فى عصرنا الذى يحفل بكثير من الأمور التى يختلط فيها الحلال و الحرام ، و الصواب و الخطأ ، ومع قلة الدرس الفقهى وسطحية تعليم الشريعة ، يتوجب على المسلمين أن يفقهوا دينهم ، ويدرسوا شريعتهم بما لا يعطى مجالاً للخلط أو سوء الفهم .

ورواية النعمان بن بشير رضى الله عنهما تشير إلى ما سمعه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن وضوح الحلال و الحرام .. الحلال بيّن ، أى واضح و ظاهر .

و الحرام بيّن ، أى واضح و ظاهر .. فإذا قلنا مثلاً إن التجارة الأمينة حلال فهذا أمر واضح لا يحتاج إلى بيان ، لأن التاجر الأمين لا يغش ولا يكذب ولا يدلّس .

و العكس صحيح إذا قلنا إن الغش فى التجارة حرام ، فهو أمر معروف يدركه الناس حين يرون السلعة غير التى اتفقوا عليها أو طلبوها من التاجر الغشاش ..

ومعنى ذلك أن الأمور الحلال التى أوضح الإسلام إباحتها معروفة ويجمع عليها الناس ، فضلاً عن علماء الأمة الثقات . أما الأمور الحرام فتم الإجماع عليها أيضا مثل السرقة و الزنا و اللواط و الغش و التدليس و الشهادة الزور و غيرها .

كل هذا يعرفه الناس ولا يحتاج إلى بيان ، بعد أن اكتمل الإسلام أو اكتمل الدين فى حجة الوداع .

"...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ....." (المائدة :٣)

لكن هناك بعض الأمور المشتبهة التى يجد المرء نفسه حائراً أمامها لا يعرف أهى حلال أم حرام ؟ و يجد نفسه فى مأزق لا يعرف طريق الخلاص منه وخاصة فى الأمور التى استجدت بعد انتصار الإسلام و اكتماله ، و تطور الزمان و تعدد المكان ؛ فقد نشأت نتيجة لتطوّر الحياة و الزمان و المجتمعات و العلاقات ، و هذه الأمور يسهل الاحتكام فيها إلى أهل العلم واستفتائهم ، و معرفة الصواب من الخطأ ، و الحلال من الحرام ، لأنهم يملكون القدرة على القياس و معرفة أصول الحكم الفقهى و الشرعى . واجتهادهم فى هذا السياق محمود ، ولهم الأجر مضاعفاً إن أصابوا ، و مفرداً إن لم يصيبوا .

بيد أن هناك أموراً غير ذلك تشتبه على كثير من الناس ، ولا تتعلق بتطور ولا اكتشاف ولا اجتهاد .. إنها أمور ترتبط بالعلاقات و السلوكيات بين الناس ، والدخول إليها يثير الشبهات ، و يجعل من يدخل فيها محل ريبة و شك مما يترتب

عليه ضرر كبير أو أذى عظيم . مع أن النوايا قد تكون حسنة .. ولكن الناس لهم الظاهر والله يتولى السرائر ..

فموضع الشبهة الذى يثير الريبة والشك . يجب أن يكون المسلم على حذر منه ويبتعد عنه . حتى لا يسقط فيه .. ويقدم لنا الحديث الشريف مثالاً حيّاً لموضع الشبهة التى ينبغى للمسلم أن يحذرها و يبتعد عنها .

و يخلص الحديث إلى أن لكل ملك حمى ، و حمى الله محارمه ، وهو ما ينبغى الابتعاد عن هذه المحارم و الحذر من الوقوع فيها بعدم الاقتراب منها ، و يؤكد الحديث على أهمية إخلاص القلب لله فى مثل هذه الأمور. فالقلب مضغة ، أى قطعة لحم إذا صلحت صلح الجسد كله ، و إذا فسدت فسد الجسد كله ، وهو ما يعنى أن على المسلم أن يتقى الشبهات أو ما يثير الريبة و الشك فى أى مجال من مجالات القول و السلوك حتى لا تكون فتنة .

ومن اتقى الشبهات و ابتعد عنها فقد استبرأ لدينه و عرضه ، أى صلب البراءة أو صار بريئاً فى دينه و عرضه ،وهو ما ينبغى أن يتنبه له كل مسلم و خاصة فى أيامنا التى تكثر فيها المشكلات الاجتماعية بسبب الاقتراب من مواقع الشبهات أو الوقوع فيها ..

ولدينا مثل قديم يقول :احذر تسلم .

و صدق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم حين قال " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه و عرضه " و الدين و العرض أغلى ما يحرص عليه المسلم فى كل زمان و مكان .

**** ****

البر و الإثم

عن وابِصةَ بن مَعْبَد ، رضى الله عنه ، قال : أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : " جئت تسأل عن البّر؟ قلتُ : نعم .

فقال : استفت قلبك ، البّر ما اطمأنت إليه النفس ، و اطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، و تردّدَ فى الصدر و إن أفتاك الناس و أفتوك "

حديث حسن رواه أحمد و الدارمى

....

يقدم لنا الحديث النبوّى الشريف قصة قصيرة للغاية حول البّر و الإثم ، بطلها وابصة ابن معبد رضى الله عنه الذى قدم على النبي – صلى الله عليه وسلم – يسأله عن البّر و الإثم ليستقيم إيمانه و يصلح إسلامه .

وقد جاء وابصة بن معبد رضى الله عنه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى عشرة رهط من قومه بنى أسد بن خزيمة فى السنة التاسعة للهجرة ، فأسلموا ورجع إلى بلاده ، ثم نزل الجزيرة ، وسكن الرّقّة و دمشق ، ومات بالرقة و دفن عند منارة مسجدها الجامع ، وقد روى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أحد عشر حديثا ، وكان كثير البكاء لا يملك دمعته ، وله عقب بالرقة أى أفراد من نسله ينتسبون إليه ..

و يلاحظ هنا أنه حين جاء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يسأل ولكنه – صلى الله عليه وسلم – عرف أنه جاء سائلاً ، و أنه يسأل عن البّر ، وهو ما أكده وابصة بقوله : نعم .

و كانت إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – قصيرة وشافية ومقنعة :

" استفت قلبك" أى اطلب الفتوى من قلبك ، من داخلك ، من ضميرك الحىّ ثم شرح معنى البّر والمقصود به :

البرّ ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والقلب المقصود فى هذا الحديث ، هو القلب الصافى النقى الذى لم يتسلل إليه الهوى ، ولم تدنسه الذنوب و الآثام .. هو القلب الذى يحتفظ بفطرته الإنسانية التى لم تلوثها الأطماع والانحرافات .

إنها فطرة اللّه التى فطر الناس عليها ، وهى التى تلتقى مع الإسلام دون وساطة لأنها تعبير حقيقى عن طبيعته و منهجه و مفاهيمه .

و الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – حين يقول : " البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب " فهو يعنى ما توافق مع الفطرة الإنسانية الصافية النقية ويستشعره المسلم فى سلوكه و قوله ، ويرى أنه الصواب بعينه ، ولا يستشعر فيه شيئاً من الشك أو الندم أو الإحساس بالخطأ أو الإثم ..

و عندما يستشعر المسلم أن هنالك شيئاً يقلقه أو يثير اضطرابه الوجدانى أو يبعث على القلق ، فإنه يتوجه من فوره إلى سؤال أهل الذكر ليطمئن و يستريح إلى القول الفصل الذى ينطق به العلماء و الفقهاء ..

بل إن بعض الناس يشعر أن الأمر يقتضى ترك مسألة ما أو الابتعاد عنها مع أن العلماء أفتوه بحلّها و إباحتها ، لأنه بداخله يرى فيها حالة غير طبيعية أو غير طيبة .. و هذا معنى " و إن أفتاك الناس و أفتوك ".

فالفتوى ليست نهاية المطاف مع أصحاب الضمائر الحية و الأفئدة اليقظة والقلوب المتصلة بالحق سبحانه صلة إيمان و إخلاص و يقين .

إن تعبير الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن الإثم بقوله :

" الإثم ما حاك فى النفس ، و تردّد فى الصدر و إن أفتاك الناس وأفتوك " يؤكد على الضمير الإسلامى فى حسم الأمور الغامضة أو المختلطة أو التى لم يدر صاحبها بحلّها و حرمتها ..

الإثم ما حاك فى النفس ، أى مالم ترض عنه النفس البشرية و تشعر أنه ليس حلالاً وليس طيباً ، و تردد فى الصدر ، أى يجد المسلم نفسه موّزعاً بين الرضا والقبول من ناحية وعدم الرضا و عدم القبول من ناحية أخرى .

إن البّر بمعناه الشامل لكل أنواع الخير و المعروف ترتاح إليه النفس وينجذب إليه القلب دون و بساطة و دون فتوى . وما أحوجنا إلى النفس الصافية والقلب الطاهر لإقامة المجتمع المتضامن المتعاون على الخير و المعروف .

و المسلم فى بحثه عن الحق و الحقيقة لا يرضى أن يفارق مواضع الشبهات أو المسائل الشائكة التى توقعه فى دائرة الإثم و المعصية .. و قد يستهين البعض من الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم ، و يقيسون الحياة بمقاييس مادّية تقوم على الربح المادى و الكسب العينى ، و هؤلاء من الذين ظلموا أنفسهم ، و ظلموا دينهم و ظلموا أمتهم و مجتمعهم لأنهم تناسوا أن الله سبحانه يرقب و يرى ، ويحاسب و يجازى ، و أن هناك يوماً سيلتقى فيه البشر جميعاً ، أعمالهم هى جواز سفرهم إلى الجنة أو النار.

نسأل الله سبحانه أن يطهّر قلوبنا لتلقى ربّها وهى صافية نقية ، ابتعدت عن الحرام ، وكل ما فيه شبهة حرام ، و اقتربت من الحلال ، و عملت به وله، و الله ولى التوفيق .

**** ****

أهل الصفة -١

عن عن طلحة البصرى – رضى الله عنه – قال : كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، فإن لم يكن بها عريف نزل الصُفَة .

فقدمت المدينة ولم يكن لى بها عريف . فنزلت الصفة ، وكان يجرى علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كل يوم مُداً من تمر ، و يكسونا الخنف ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – ذات يوم بعض صلوات النهار ، فلما انصرف ناداه أهل الصفة يمينا و شمالاً : يا رسول الله ، أحرق بطوننا التمر ، و تخرّمت علينا الخنف !!

فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منبره ، فصعده فحمد الله و أثنى عليه فذكر شدّة ما لقى من قومه ، حتى قال :

" فلقد أتى على و على صاحبى بضع عشرة يوماً ، ومالى و له طعاماً إلا البرير ، فقدمنا على إخواننا هؤلاء من الأنصار ، و عظم طعامهم التمر فواسونا فيه ، فوالله لو أجد لكم الخبز و اللحم لأشبعتكم منه . و لكن عسى أن تدركوا زماناً حتى يُغدى على أحدكم بجفنة ، و يراح عليه بأخرى .. "

حديث صحيح أخرجه أحمد وآخرون

....

نحن فى هذه القصة النبوية التى يرويها الحديث الشريف ، بصدد قضية مهمّة ، تعنى المسلمين فى كل زمان و مكان ، و تخاطب الوجدان الإسلامى ، فيهتز أمام احتياجات إخوانه من أهل الإسلام و غيرهم ، للإحسان إليهم و مساعدتهم ومدّ يد العون إلى المحتاجين والذين لا يجدون ما ينفقون ، كما تقودنا هذه القصة إلى

المقارنة بين زمن التضامن الإنسانى و التكافل الاجتماعى فى عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وزمن آخر ينسى فيه المسلمون تعاليم الإسلام و قيمه ، فيتقاتلون ويتناحرون ، و تضيع هيبتهم و يقعون فريسة سهلة لأعدائهم و خصومهم .

إن طلحة البصرى – رضى الله عنه – يكشف لنا عن نمط من السلوك الاجتماعى على عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – يحقق للغرباء عن المدينة ما يحتاجونه من سكن و إقامة بوصفهم ضيوفاً جاء للعلم و التعرف على الإسلام من منبعه الأصلى وهو الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى يقيم فى المدينة المنورة . وإذا تأملنا اسم راوى الحديث " **طلحة البصرى**" سنجده منسوبا إلى " البصرة" وهى مدينة بعيدة عن المدينة تقع فى العراق ، و الرجل – أى طلحة البصرى – قد جاء إلى المدينة ، ولم يكن له بها " عريف" أى مسئول عن أهل البصرة و نواحيها يستضيفهم و يقوم على أمورهم ومعاشهم حتى تنتهى فترة إقامتهم و ينجزوا مهمتهم ، فتذهب إلى ركن مظلّل فى المسجد النبوى أطلق عليه ركن أهل الصفة حيث يجتمع المهاجرون الفقراء ، والبسطاء الذين لا يملكون سكنا ولا طعاماً .

وكان المسلمون يطلقون عليهم ضيوف الإسلام أو أضياف الإسلام ، ويخصص لهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما يتاح له من طعام و كساء ..

ولا شك أن هذا المنهج يمثل صورة للتكافل الإجتماعى – وضع أساسها الرسول – صلى الله عليه وسلم – و سار عليه المسلمون من بعده ، و طبقوه بصور مختلفة على مستوى الوحدات السياسية الكبرى أو القرى و التجمعات السكنية الصغيرة فى شتى أرجاء الأمة الإسلامية .

وكان الأزهر مثلاً إلى عهد قريب يخصص " أروقة" فى مسجده الكبير لكل القادمين من شتى أرجاء المناطق الإسلامية ، و يصرف لهم " **الجراية** " أو الطعام حيث يظلون مقيمين إلى أن تنتهى مدة تحصيلهم للعلم على شيوخ

الأزهر، و يرجعون إلى بلادهم لينهضوا بمهامهم فى مجال التعليم أو الوعظ أو الخطابة أو الإمامة .

و هناك من يعد " الصفة " بداية لما يعرف بالصوفية . حيث تعنى الزهد فى زخرف الدنيا و متاعها . و العيش عيشة التقشف و الكفاف ، بعيداً عن صراع الحياة وطغيانها ، و التفرغ للعبادة و الطاعة .

و أيا كان الأمر ، فإن طلحة البصرى لم يكن له " عريف" بالمدينة ، و نزل على أهل " الصفة " ، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخصص لهم كل يوم مداً من تمر يتعيشون به أو يكون طعامهم اليومى ، و بالإضافة إلى ذلك يجعل لهم كساءً من الخنف وهو نوع ردىء بل أردأ أنواع الكتان الغليظ الخشن .

وكما نرى فالطعام و الكساء كانا متواضعين للغاية ، و يحفظان الحياة بصعوبة وهو ما دعا أهل الصفة إلى الشكوى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما يعانونه من سوء الطعام والكساء جميعاً . و قد اغتنموا فرصة انتهائه – صلى الله عليه وسلم من الصلاة ذات يوم ، فقالوا له :" يا رسول الله أحرق بطوننا التمر ، و خرقت علينا الخنف " أى إنهم من أكل طعام واحد فقد احترقت بطونهم ، و تمزقت ملابسهم الكتانية الرديئة من طول استعمالها . وكان رد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن صعد المنبر ، و حمدا لله و أثنى عليه ، و ذكر لهم من أجل أن يواسيهم و يصبّرهم شديد ما لقيه على يد قومه فى مكه قبل الهجرة ، وكان إيذاءً وحصاراً و ملاحقة .. وهو الأمر الذى استمر فى أثناء هجرته وشاركه المعاناة صاحبه أبو بكر رضى الله عنه .

**** ****

أهل الصفة -٢

شكا أهل الصفة من سوء الطعام و تخرّق الثياب ، فصعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – المنبر و أخذ يواسيهم و يتمنى لو كان لديه خبز و لحم ليشبعهم منه، ورجا لهم زمناً أفضل تقدم لهم فيه جفنة طعام بعد أخرى .

" **فقالوا** : يا رسول الله ، أنحن اليوم خير ، أو ذلك اليوم ؟

قال : " لا ، بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون ، و أنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض ".

....

لا ريب أن موقف أهل الصفة مما يعانونه من سوء الطعام أو تخرّق الثياب هو أمر طبيعي تفرضه الطبيعة الإنسانية التي لا تصبر على طعام واحد ، ولا ترضى بلون واحد من المأكولات ، و هؤلاء الفقراء المساكين الذين يعيشون على التمر، ويرتدون أسوأ أنواع القماش وهو الخنف أو الكتان الرديء جداً ، مرّت بهم أيام طويلة ، ولم تتغير حالهم فكانت شكواهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علّهم يجدون عنده حلاً يغيّر من هذا الواقع البائس .

و تقبل الرسول – صلى الله عليه وسلم – شكواهم بروح طيبّة حانية، لم يتأفف ولم يغضب و لم يقل لهم : أنتم ترون الواقع و تعرفون ما فيه فلا تتكلموا ولا تثوروا .. ولكنه صلى الله عليه وسلم – أدرك بحسّه الإنساني و شعوره النبّوي ، أن أهل الصفة مظلومون و يجب أن يقف إلى جانبهم و يصبرّهم و يواسيهم .. وهو ما جعله يميل إلى المنبر، أي يتجه إليه ، ثم يصعد ، و يبدأ في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهل له .

كان من الطبيعي أن يذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما عاناه والمسلمون الأوائل من شدّة و معاناة على يد مشركي مكة الذين طاردوهم

وحاصروهم و عذبوهم ، وقد كان هنالك حصار مشهور فى شِعْب أبى طالب ، حيث لم يجد المسلمون الطعام فاضطروا إلى أكل العشب و أوراق الشجر كى تستمر الحياة.. إلى أن ذن الله بالفرج ، و تم فك الحصار..

و يشير الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى حدث قريب يعرفه أهل الصفة وهو هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع صاحبه أبى بكر من مكة إلى المدينة ، وقضى فى رحلة الهجرة أياماً صعبة زادت على العشرة أيام ، لم يأكل فيها و صاحبه طعاماً إلا البرير ، و هو ثمر الأراك ، أى إن طعام النبى – صلى الله عليه وسلم – و صاحبه كان يشبه طعام أهل الصفة الذى يشتكون منه ، و يقولون إنه أحرق بطونهم .

لقد صبر النبى – صلى الله عليه وسلم – و صاحبه على هذا الطعام ، حتى وصلا إلى المدينة ، وجاء الأنصار لمواساتهما ، فقدموا لهما التمر ، وهو غالب طعامهم الذى يقتاتون عليه . و كان لا مفر من القبول بهذا الطعام ، لأنه الواقع المتاح ، مع الصبر الجميل حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وما ذكره الرسول – صلى الله عليه وسلم – لترضية أهل الصفة ، واستعرض فيه مالاقاه من قومه ، وما عاناه فى الهجرة إلى المدينة ، كان ضرورة ليعلن لهم عن أمنيته بل رجائه أن يدركوا زمانا ، و يلحقوا عصراً ، أفضل وأسعد .

إنه يقسم بالله لو أنه يملك الخبز واللحم لأشبعهم منه ، أى يقدمه لهم ليأكلوا حتى تمتلئ بطونهم و يكفوا عن تناول الطعام ، ولكنه يرجو أن يأتى الزمان الذى يتحقق لهم فيه ذلك ، فتقدم لهم الجفنة بعد الجفنة ، و الجفنة هى الإناء الكبير الواسع الذى يوضع فيه الثريد و فوقه اللحم ، وهو الطعام المفضل عند أهل الجزيرة العربية .

وبلا شك ، فقد نزل كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أهل الصفة برداً و سلاماً ، و أراح نفوسهم و أفئدتهم ، و هيأهم فرصة التساؤل عن الزمن الحاضر الذى يعيشونه ، و الزمن الذى سيأتى من بعدهم :

" يا رسول الله ، أنحن اليوم خير ، أو ذلك اليوم ؟ " يقصدون المستقبل !

إنهم من شدّة المعاناة يتطلعون إلى يوم خير من يوم المعاناة الذين يعيشون فيه ..وكانت إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالنفى لسبب واضح يذكره " لا ، بل أنتم اليوم خير ، أنتم اليوم متحابون ، و أنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض ! " .

خيرية اليوم الذى يعيشونه – مع الفقر و الجوع – ترجع إلى الحب و التراحم و المودة التى تسوء بينهم ، و تحكم علاقاتهم و سلوكهم ، و تجعلهم يتكافلون ويتراحمون .

أما اليوم الآخر ، الذى سيأتى فى المستقبل بعد يومهم هذا ، فسببه الأنانية و الأثرة و حب المادة و انتفاء التكافل و التراحم ، وهو ما يؤدى إلى الكراهية و البغضاء والعدواة فيضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض ، أى يقتتلون فيما بينهم، مما يضيع هيبتهم ويغرى بهم أعداءهم ، و يجعلهم قصعة الأمم . إنهم يؤمئذ تخلوا عن المنهج الإسلامى الذى يقدم الروح على المادة ، و القيمة على الثروة ، والمعنى على الشكل ، و الآخرة على الدنيا سعياً ، ليعيش المسلم فى أمن و سلام ورضاً. أما إذا تعلق المسلم بزخرف الدنيا و متاعها فهو بلا ريب يحيا فى اضطراب و قلق و عدم اطمئنان ، و يسلم نفسه للغواية مع الشيطان التى تنتهى بالدم والصراع و الدمار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

**** ****

دفاع الملائكة -١

عن أبى هريرة رضى الله عنه – قال :

إن رجلاً شتم أبا بكر ، ورسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – جالس ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم – يعجب و يبتسم ، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم – وقام ، فلحقه أبو بكر ، فقال :

يا رسول الله ، كان يشتمنى ، و أنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت و قمت !! قال :" إنه كان معك ملك يردّ عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان "..

حديث صحيح أخرجه أحمد و الطبرانى

....

فى هذه القصة النبوية التى يحملها الحديث الشريف ؛ منهج إسلامى يبين طبيعة التعامل الإنسانى و السلوك الإجتماعى الذى ينبغى أن يسود بين المسلم و المسلم ، بل بين المسلم وغيره ، سعياً لبناء مجتمع إسلامى متماسك و قوى ، يرقى أفراده فى علاقاتهم اليومية و الإنسانية إلى مستوى عال من النضج و الاحترام و التسامح والرفق .

إن الخلق الكريم هو أساس العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامى ، بما فيه من غير المسلمين ، وكان الوصف الأسمى الذى وُصف به الرسول – صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، هو قوله تعالى : "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ "(القلم:٤)

فالحق سبحانه يصف نبيه صلى الله عليه وسلم بصاحب الخلق العظيم وهو ما يعنى أن قيمة الخلق العظيم فى السلوك الإسلامى ، تسبق أية قيمة أخرى ، بل هى جماع كل القيم ..

و إذا كانت صفة الخلق العظيم للرسول – صلى الله عليه وسلم – هى تقرير الواقع الحقيقى الذى كان عليه نبى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – فهناك إشارات قرآنية إرشادية لتطبيق هذا الخلق العظيم ، منها قوله تعالى :

"خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ "(الأعراف ١٩٩)

وهـي أمـر مباشـر بـالعفو والمعروف والإعراض والبعد والتجاوز عن الحمقى وأصحاب الأخلاق غير الكريمة، وهو ما يقود إلى التذكير بموقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – في القصة النبوية التي بين أيدينا كما سنرى، وهناك إشارة في توجيه عام لجمهور المسلمين حين يصطدمون بهؤلاء الحمقى أو سريعي الغضب أو سيئي الخلق حيث يصف الحق سبحانه عبادة المؤمنين بأنهم:

"وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا "(الفرقان: ٦٣)

و المسالمة خلّة أساسـية من خلّال المسلم الحق، فهو ليس شتاماً ولا لعّاناً ولا فاحشاً ولا بذيئاً. و الحديث الشريف صحيح في ذلك، حيث نقرأ قوله – صلى الله عليه وسلم – " المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده ".

و نقرأ له حديثا آخر يتضمن هذا المعنى بصورة أخرى: "ليس المسلم بطعّان ولا فاحش ولا بذيء ".

وهو ما يقودنا إلى فهم القصة التي بين أيدينا، وفهم السبب الذي دفع الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ترك المجلس الذي كان يجلس فيه مع أبي بكر، وعدم رضاه عما رآه و سمعه.

لقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجلس مع أبي بكر رضي الله عنه و إذا برجل لم يحدد الحديث الشريف هويته، من هو؟ أو من يكون؟ ولكنه بالتأكيد من المجتمع الإسلامي وقد جاء إلى المجلس، ووجه الشتائم إلى أبي بكر رضي الله عنه.

و نحن نعلم من هو أبو بكر.. أول من أسلم من الرجال، و الصدّيق الذي آمن بالرسول – صلى الله عليه وسلم – و صدقه حين كذبه قومه، وهو الذي كان ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. و الصديق هو صاحب المواقف العديدة في نصرة الإسلام و دعم المسلمين .. أبو بكر يثير غضب

obeikandl.com

الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين يرد بعض الشتائم على من شتمه ، فيترك المجلس و يغادره ..

ولا يحتجّن أحد فى هذا المجال بأن الله يأمرنا فى قوله تعالى :

"..فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ...." (البقرة : ١٩٤)

بردّ العدوان ، وكيل الصاع صاعين لمن شتمنا أو سبّنا أو قذفنا . فهذا التوجيه خاص بالمواجهة مع الأعداء الذين يأتون بجيوشهم أو قواتهم المسلحة للإعتداء علينا أو غزونا أو إذلالنا . أما أخوة الإسلام و أفراد المجتمع الإسلامى فينبغى أن يسود الرقىّ الخلقى و التسامح الإنسانى فيما بينهم ...

و هذا ما فسّره الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأبى بكر – رضى الله عنه – حين تدارك الموقف و لحق بحبيبه – صلى الله عليه وسلم – يستكشف سبب مغادرته للمجلس ، وإحساسه بغضبه مما رأى وسمع .

فقد قال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – " إنه كان معك ملك يرّد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان . فلم أكن لأقعد مع الشيطان ".

إذاً هذا هو التفسير الأوّلى للمغادرة و الغضب . حين كان أبو بكر – رضى الله عنه يتلقى الشتائم من ذلك الوافد على المجلس ، فإن ملكا من الملائكة الكرام كان مع أبى بكر يرّد عنه ، سواءً بإحصاء سيئات الشتّام أو بتسجيل الحسنات للمشتوم الذى هو أبو بكر و عندما قام أبو بكر يردّ بعض الشتائم ، انتهى دور الملك ، و بدأ دور الشيطان ، أو وقوع الشيطان و حلول فى المكان بين الشاتم و المشتوم ليشعل العداوة بينهما ، وهو ما يرفضه الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا يرضاه لنفسه – وهو ما عبر عنه بقوله ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان " . ونلتقى مع تفسير أوسع وأرحب للموضوع فيما يلى .

**** ****

دفاع الملائكة -٢

غضب الرسول – صلى الله عليه وسلم – و ترك مجلسه مع الصديق أبى بكر رضى الله عنه لأنه ردّ بعض الشتائم على شاتمه . و أعلن عن غضبه مبينا لأبى بكر أن ملكاً كان يرّد عنه ، ولما ردّ هو وقع الشيطان ، وما كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليقعد مع الشيطان ..

ثم فسر المسألة تفسيراً أوسع و أرحب حين قال صلى الله عليه وسلم :" يا أبا بكر ، ثلاث كلهم حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها لله – عزوجل إلا أعزّ الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية ؛ يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلاّ زاده الله بها قلّة "

صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم

....

فى هذه القصة النبوية الشريفة ، يلفت نظرنا موقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى حالين .

الحالة الأولى : هى تعجّبه و ابتسامه ، عندما جاء الرجل الذى شتم أبا بكر الصديق – رضى الله عنه .

الحالة الأخرى : هى غضبه و مغادرته للمجلس .

فلماذا ابتسم أولا ، و لماذا غضب ثانيا ؟

الإجابة بسيطة للغاية ، وهى أن ابتسام الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان والله أعلم نوعاً من تهدئة الشخص الذى جاء يشتم أبا بكر ، و إشعاره بتجاوزه مما يحتم عليه أن يتراجع ويكفّ عن شتائمه وربما يسارع بالاعتذار لأبى بكر وترضيته ، ثم إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يبتسم لدفاع الملك عن أبى بكر ، وردّه على الشاتم نيابة عنه .

أما الغضب ، فكان نيجة لأن أبا بكر أخذ يثأر لنفسه ، ويرّد بعض الشتائم مما جعل الملك يتوقف عن الدفاع عنه ، ثم يقع الشيطان ، و عندما يقع

الشيطان بمعنى يحضر فى المجلس فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يجلس فى مجلس فيه شيطان لا يريد الخير بالشاتم أو المشتوم وهو ما يؤدى إلى شرّ مستطير بين الطرفين .

ولا ريب أن نهوض الرسول – صلى الله عليه وسلم – من المجلس كان تعبيراً عمليا عن رفض الإسلام لنهج الإساءة المتبادل بين المسلمين . فالمسلم مطلوب منه ألا يرّد على أخيه المسلم الذى يشتمه فالملائكة تتولى الدفاع عنه ، ثم إن الصبر على الأذى له ثوابه وله تأثيره أيضاً على من قام بالأذى ، إذ يصبح فى وضع الظالم الذى يرفضه المجتمع ويتحاشاه حتى يكف عن أذاه و يستقيم على الجادة ..

و الرسول – صلى الله عليه وسلم – يوضح ذلك لأبى بكر؛ رضى الله عنه ، فى إطار أوسع و أرحب حين يوضح لأبى بكر ثلاثة أمور مهمة فى سلوك المسلم ..

الأمر الأول : هو أن التسامح مع المعتدى بالإساءة و الشتم و الأذى ، ابتغاء وجه الله خير و أبقى ، لأن الله يعزّ المتسامح المظلوم ، و ينصره ، وهو ما يعنيه قوله – صلى الله عليه وسلم – " ما من عبد ظلم بمظلمة ، فيغضى عنها لله – عزّوجل – إلاّ أعز الله بها ونصره ".

و مفهوم هنا أن الظلم هنا هو ما يتعلق بالعلاقات الشخصية ، بين فرد وآخر فالشخص الذى يظلم شخصاً آخر بالإساءة إليه ، فيغضى عنه الآخر – أى يعفو ويتسامح تقرّبا إلى الله ، فإن الله سينصره و سيعزّه ، و يكافئه على عفوه وتسامحه بصورة و أخرى .

أما الظلم العام الذى يتعرض له الناس أو يستوجب قصاصاً من الظالمين ، فأمر آخر يحتم التصدى لردّه و ليستقيم أمر المجتمع و تصلح الحياة ، مع تقديم العفو وتفضيله على القصاص يقول تعالى :

"وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ "(الشورى :٤٣)

وهناك دعوة عامة إلى جميع أفراد المجتمع الإسلامى تدعوهم إلى المسارعة إلى الخيرات و الجنة بالإنفاق فى سبيل الله و كظم الغيظ و العفو عن

الناس . "وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ" (آل عمران ١٣٣- ١٣٤)

الأمر الثاني : يتمثل في العطاء لوجه الله ، وهو أمر يُقَرِّبُ ما بين الناس ، و يوطّد علاقاتهم ، و عبّر عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله :

"وما فتح رجل باب عطية ، يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة" . و نحن نعلم أن الحسنة بعشر أمثالها . و تأمل قوله – صلى الله عليه وسلم – فتح باب عطية ، كأن العطية بناء كبير له باب تفتحه النفس الخيرة ، الميّالة إلى الجود والكرم، فتربط ما بينها و بين الناس بصلة قوية وآصرة متينة ، و كأن العطيّة ماء يطفئ نيران الإساءة و الأذى والتحرش بالآخرين .

أما الأمر الثالث و الأخير : فيأتي كأنه عكس الأمر السابق ، وهو "السؤال" أو الطلب من الغير دون ضرورة أو حاجة ، فهو وبال على صاحبه حاضراً و مستقبلاً ، فضلاً عن كونه صفة تتنافى مع العفّة و الترفع و عزة النفس ، و عبّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك بقوله : " وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " **فالغنى ليس بالمسألة** ، و إنما بالقناعة و غنى النفس ، وقد أشار القرآن الكريم إلى **أولئك الذين يترفعون عن المسألة** :

".....يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ" (البقرة : ٢٧٣)

أما المسألة لغير ضرورة ، فهي لا تورث غنى بل تورث فقراً و بؤسا.

إن مقابلة الشتم بالشتم ليست من أخلاق الإسلام ، وقد قدم لنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – درساً عملياً من خلال ما حدث لأبي بكر رضي الله عنه ، و أوضح لنا كيف تكون العلاقة بين الناس قائمة على المودّة و التسامح و التعاطف و العطاء و التعفف .

قصة غزوة بدر و الأسرى -١-

عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حدثه فقال :

لما كان يوم بدر نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المشركين وهم ألف و أصحابه ثلاثمائة و تسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبى الله – صلى الله عليه وسلم – القبلة ثم مدّ يده فجعل يهتف بربه :

" اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة مّن أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ".

فما زال يهتف بربه مادّاً يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عزوجل :

"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ " (الأنفال :٩)

(حديث صحيح ، أخرجه مسلم و آخرون)

.....

تمثل غزوة بدر فى التاريخ الإسلامى لحظة فارقة بين الاستضعاف والقوة بين الذلة و العزة ، بين الوجود و الهشّ المحاصر ، و الوجود الراسخ الحرّ ...غزوة بدر بداية المرحلة التى أخذ فيها الإسلام يفرض فيها ذاته و كيانه و حاضره و مستقبله على الخصوم و الأعداء و المنافقين و المتربّصين ... إذ إنها حققت لأول مرة انتصاراً عسكريا ينجزه المسلمون فى الميدان ، مع اتساع الفارق بين قوتهم و قوة أعدائهم .. فقد كانوا يمثلون قوة صغيرة ضعيفة بالقياس إلى قوة الأعداء التى تملك تفوقاً كبيراً فى العدد و العدة أو الأفراد و السلاح ، وكانت نتيجة المعركة خسارة فادحة للأعداء

؛ إذ فقدوا ما يقرب من سبعين قتيلاً بينهم عدد لا بأس به من قياداتهم المؤثرة ؛ فى مقدمتهم أبو جهل ، العدو اللدود للإسلام . كما فقدوا سبعين مقاتلاً آخرين ، وقعوا فى أسر المسلمين ، ولم يفرج عنهم إلا بعد ظروف معينة عايشوا فيها قسوة الهزيمة ، ورأوا انتصار الإسلام ، وتفاعلوا مع المجتمع المسلم سلباً و إيجاباً من خلال القيم و السلوكيات التى تحرّك بها المسلمون فى مرحلة القتال وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

لقد تناول القرآن الكريم قصة غزوة بدر فى سورة الأنفال ، و أشار إليها فى بعض السور الأخرى ، كما وردت أحاديث نبوية شريفة تتحدث عنها و تسرد وقائعها وأحداثها ، وفى هذا الحديث الشريف ، يقوم عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بسرد أحداث الغزوة من وجهة نظرة على لسان عبد الله بن عباس، ولكن المحور الأساسى فى رواية عمر هو الإشارة إلى موضوع الأسرى المشركين الذين وقعوا فى قبضة المسلمين وهو موضوع اقتضى مشاورة بين النبى – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه ، و نزل فيه الوحى ليعلّم المسلمين كيفية التصرف فى مثل هذا الموضوع الخاص الذى تكتنفه ملابسات خاصة .

لقد وقعت غزوة بدر عند بئر على مشارف المدينة المنورة ، كان صاحبها يسمّى بدراً ، وصار هذا الاسم علماً على هذه الغزوة التى جرت فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان يوم جمعة .

كان عدد المشركين المقاتلين ألف رجل ، فيهم كثير من الفرسان ، مسلحين بأفضل الأسلحة ، ومعهم كثير من المؤن و الاستعدادات . أما المسلمون فكانوا ثلاثمائة و تسعة عشر رجلاً ، وكان تسليحهم محدوداً ، و معظمهم كان راجلاً ، أى يسير على قدميه بلا خيل ولا ركاب ..

" اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم آت ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ".

الدعاء وسيلة من وسائل طلب النصرة من الله سبحانه جل و علا ، المسلم يلجأ إلى ربه لينصره و يعزه فى ظل تفوق العدو و هيمنته القتالية ، و النبى – صلى الله عليه وسلم – يقدم القدوة للمسلمين كى يتضرعوا إلى الله و يطلبوا منه العون و المساندة والثبات فى مواجهة عدوّهم .. إن الدعاء صلاة ، والعبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو يصلى و يسجد ، يستجيب له ، و يمّن عليه بأفضاله و نعمائه . وقد دعا النبى – صلى الله عليه وسلم ربه ، لينجز له وعده بالنصر أو الغنيمة . وكان تضرع النبى – صلى الله عليه وسلم صادقا و مخلصا و منطقيا :

اللهم إن تهلك هذه العصابة ، أى هذه الجماعة المسلمة ، أو جماعة المسلمين أو أهل الإسلام ، لا تعبد فى الأرض ، أى إن الرسول – صلى الله عليه وسلم يطلب النصر من ربه ، حتى تستمر عبادته ، و يستمر ذكره فى الأرض ، من خلال المؤمنين به المطيعين له و إلا فإن هزيمتهم تعنى هزيمة الإسلام و القضاء عليه .. وقد استجاب الله للنبى – صلى الله عليه وسلم – وأنجز وعده .

**** ****

قصة غزوة بدر و الأسرى -٢-

قال ابن عباس : رضى الله عنهما : بينما رجل من المسلمين يومئذ (أى يوم بدر) يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم .

فنظر إلى المشرك أمامه فخّر مستلقياً ، فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه ، و شق وجهه كضربة السوط ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم فقال :

" صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ".

فقتلوا يومئذ سبعين و أسروا سبعين ".

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : " ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ ".

فقال أبو بكر – رضى الله عنه :

يا نبى الله هم بنو العم و العشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :- " ما ترى يا ابن الخطاب ؟"

فقال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : لا و الله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضربَ أعناقهم ، فتُمكّن عليا من عقيل فيضرب عنقه و تمكّنى من فلان – نسيبا لعمر – فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وصناديدها فهوىَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما قال أبوبكر ، ولم يهو ما قلت ....."

....

obeikandl.com

حين رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - الفارق الشاسع بين قوة المسلمين وقوة المشركين . و تفوق الآخرين ، ابتهل إلى ربه مناشداً و هاتفاً حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، أى كتفيه ، وكان يدعو ربه لينجز وعده للمسلمين . قام أبو بكر رضى الله عنه وأخذ رداءه – صلى الله عليه وسلم – و ألقاه على كتفيه ، ووقف من ورائه قائلاً : يا نبى الله ، كذاك مناشدتك ربك ، أى كفاك مطالبة ربك ، فقد وعدك بإحدى الطائفتين : العير أى القافلة التى تسوقها قريش بزعامة أبى سفيان ، أو النفير أى مقاتلة جيش المشركين و الانتصار عليه ، و سينجز الله وعده الذى وعدك به .. و قد تحقق هذا فعلاً بفضل الله وكان النصر على الجيش الذى جاء بعد الإمداد بالملائكة .

قال تعالى : "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "(الأنفال :٩-١٠)

و لاشك أن الدعاء الخالص لوجه الله سبحانه يجد القبول و الإستجابة وهو ما رأيناه فى غزوة بدر ، حيث استجاب الله لدعاء نبيه – صلى الله عليه وسلم وأنزل الملائكة يقاتلون مع المسلمين الذين كانوا أقلية ضعيفة . ولكنها أقليّة مؤمنة أخذت بالأسباب ، و أعدت العدة التى تقدر عليها . و قاتلت بصبر و استماتة و طلباً للشهادة وهو ما جعل نتيجة المعركة على غير ما توقع الناس ، إذ كان المتوقع وفق الحسابات المرئية هو انتصار قريش المشركة ، الأكثر عدداً و عدّة ، ولكن النتيجة أن المسلمين الأقل عدداً و عدة هم الذين انتصروا ، وكان انتصارهم ساحقا وداوياً إذا أسروا سبعين مقاتلاً من قريش ، و قتلوا سبعين آخرين منهم .

لقد تمثلت نصرة الله للمسلمين فى إمدادهم بالملائكة ، وفى قصة المشرك الذى خرّ مستلقياً أمام الفارس ما يشير إلى هذا الإمداد ، فقد سمع رجل من

المسلمين وهو يشتد فى أثر رجل من المشركين ضربة سوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، وحيزوم هو اسم فرس الملك الذى كان يطلب منه الإقدام ، أى الكرّ على الأعداء . وسوف نجد أن المشرك الذى استلقى على الأرض أو انبطح عليها قد حطم أنفه ، أى جرح أنفه أو صارت عليه علامة جرح . و شق وجهه كأنه أثر من ضربة السوط ، وحين يبلغ أنصارى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فيقول : " صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة " ...

أى إن ما جرى للمشرك . هو نيجة ما فعله الملك الذى أنزله الله من السماء الثالثة مع آخرين لمقاتلة المشركين و دعم المسلمين فى محنتهم التى يواجهون فيها قوة أكبر منهم و أعظم تسليحاً و إعداداً .

"لقد كانت نتيجة المعركة مذهلة . نصر و أسر . و يبدو أن المسلمين آنئذ لم يتوقعوا أن ينشأ لديهم وضع جديد غير مسبوق ، وهو أسر سبعين مشركا من مقاتلى قريش ماذا يفعلون بهم ؟ أو كيف يتصرفون معهم ؟

وهنا نرى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلجأ إلى مشاورة المسلمين، فليس لديه تشريع يهدى فى هذه المسألة . وكان أمر الأسرى فى هذا الزمان غير خاضع لقانون أو عرف . كان التصرف فى الأسرى خاضعاً لما يراه المنتصرون ، وهو ما فعلته الأمم المتحاربة و أهمها يومئذ الفرس و الروم . لم تكن هناك قاعدة ثابتة أو نظام متفق عليه

كان هناك من يقتل الأسرى ، وكأن هناك من يستعبدهم و حوّلهم إلى عبيد يباعون ويشترون ، وكان هناك من يقايض بهم مع قومهم المهزومين ، أو يجعل لهم ثمناً يفتديهم أو يدفعه ذووهم ؛ وقادتهم من قومهم المهزومين ..لذا كانت المشاورة بعد غزوة بدر هى الطريق الأمثل لمواجهة أمر الأسرى المشركين .

**** ****

قصة غزوة بدر و الأسرى -٣-

بعد أن استشار الرسول – صلى الله عليه وسلم – صاحبيه أبا بكر و عمر في أمر الأسرى الذين أسرهم المسلمون في غزوة بدر، يقول عمر رضى الله عنه :

" فلما جئت من الغد ، جئت فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أبو بكر قاعدين يبكيان .

قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت و صاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، و إن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟!

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أو فى من هذه الشجرة ".

شجرة قريبة من نبى الله – صلى الله عليه وسلم – و أنزل الله عزوجل :

"مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ...." (الأنفال :٦٧-٦٩)

فأحل الله الغنيمة .

....

كان وجود سبعين أسيراً مشركاً فى قبضة المسلمين ، بعد غزوة بدر ، مسألة مهمّة تحتاج إلى تصرف يعالجها ، فهؤلاء الأسرى كانوا يقاتلون المسلمين ، وجاءوا إلى بدر معتدين ، وبعضهم من قادة الشرك و العدوان ، و لذا طرح الرسول – صلى الله عليه وسلم أمرهم على المسلمين ، فالتصرف معهم ، لم يرد فيه وحى ، أو أمر من السماء .

وكان أبو بكر و عمر أبرز أصحاب الرأى و المشورة فى المجتمع الإسلامى آنئذ . و استشارهما الرسول – صلى الله عليه وسلم . فرأى أبو بكر – رضى الله عنه – أن تؤخذ منهم فدية تكون قوة للمسلمين على الكفار ، وكانت أسباب رأيه تتلخص فى كونهم أى الأسرى – أبناء العم و العشيرة ، أى أقارب للمسلمين ، و أن الفداء يمكن أن يكون طريقاً لهدايتهم إلى الإسلام ، فضلاً عن كون الفدية وسيلة من وسائل قوة المسلمين .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه – فقد كان رأيه مخالفا لرأى الصديق أبى بكر و كان يرى أنه لابد من قتلهم ، و أن يقوم الصحابة بقتل الأسرى من رؤس الكفر ولو كانوا من أقاربهم ، فيقتل عليّ عقيلاً ، ويقتل هو – أى عمر – صهراً له .. وهكذا ، وحجته فى ذلك أن هؤلاء أئمة الكفر و صناديدها ، أى أشراف الكفار ، وهم كبار الكفرة و أشرارهم .

لم يأخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – برأى عمر ، ولكنه أخذ برأى أبى بكر " فهَوِىَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما قاله أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ...".

ولا ريب أن علاقة النسب والقربى ، والأمل فى الهداية ، كانت من وراء موافقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على رأى أبى بكر ، ولكن الوحى جاء موافقاً لرأى عمر وهو ما جعل النبى – صلى الله عليه وسلم – و أبا بكر – رضى الله عنه – يبكيان ، مما أثار تساؤل عمر عن سبب البكاء ..

لقد اتخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – الموقف السليم ، وهو الشورى أو المشاورة أو طلب الرأى من أصحاب ، فيما عرض له من أمر الأسرى ، إذ لو كانت هناك قاعدة شرعية معروفة ، ما احتاج إلى المشاورة ، ولطبق هذه القاعدة تلقائيا ..

و يبدو – و الله أعلم – أن الحق سبحانه أراد أن يعلم المسلمين درساً فى كيفية التصّرف عندما لا يوجد نص ، أو قاعدة شرعية ، إذ يتوجب عليهم أن يتشاوروا و يطرحوا الآراء المختلفة بأسانيدها و أسبابها و مسّوغاتها ، و عليهم

بعدئذ أن يرجحوا ما يرونه موافقاً لصلحة المسلمين ، وقد وردت بعض الآيات التى تؤكد على الشورى مثل قوله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم :

"....وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ...."(آل عمران ١٥٩)

وحين يتحدث عن صفات المؤمنين ، عدّ الشورى واحدة من صفاتهم قال تعالى :"...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ....." (الشورى ٣٨)

وهناك أحاديث و مأثورات تتحدث عن قيمة الشورى و أهميتها فى حياة المسلمين

بيد أن المسألة بالنسبة للأسرى فى غزوة بدر ، كانت أكبر من ذلك إذ إن القوم حين اعتدوا على المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وجاءوا لمحاربتهم و مقاتلتهم عند بدر كانوا يقصدون إلى إفنائهم قصداً ، و كانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام قضاء مبرماً لولا نصر الله ، و إمداده المسلمين بالملائكة . و نزلت الآيات الكريمة توضح ذلك : "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "

(الأنفال ٦٧- ٦٩)

لقد بكى النبى – صلى الله عليه وسلم و أبو بكر رضى الله عنه ، خوفاً من عذاب الله ، وعرف أن قبول الفدية فى هذه الحال ، و المسلمون لم يتمكنوا فى الأرض بعد – هو إغراء للكافرين بالاستهانة بهم و معاودة الكرة عليهم . و كان الواجب إثقالهم بالجراح حتى لا يستطيعوا قتالاً فى الأرض ..ولكن الحق سبحانه يقدر للمجتهدين جهدهم و يعفو عن الخطأ الذى وقعوا فيه ، و يحلّل لهم الغنائم ، و يدعوهم إلى التقوى و التوبة فهو الغفور الرحيم .

لقد كانت غزوة بدر فى أسبابها و سياقها و نتائجها ، درساً مستمراً ينبغى على المسلمين فى كل زمان و مكان استيعابه و الاستفادة منه .. فهو درس عظيم بكل المقاييس .

قصة إسلام صحابي جليل (١)

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : بعثتْ بنو سعد ، ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقدم عليه ، و أناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس فى أصحابه ، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " **أنا ابن عبد المطلب** ".

قال : أمحمّد ؟ قال : " نعم ".

قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك و مغلظ عليك فى المسألة ، فلا تجدن بها على فى نفسك .

قال : " لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك ".

قال : أنشدك الله إلهك و إله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك رسولاً ؟

قال : " اللهم نعم " ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحدّه ، ولا نشرك به شيئاً ، و أن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : " اللهم نعم " ..

حديث صحيح أخرجه أحمد و أبو داود و آخرون

....

تمثّل قصص إسلام الصحابة عموماً نموذجاً للبحث عن الحقيقة والسعى إلى اكتشافها وفقا لمعايير العقل و الإخلاص و التدبر ، ومن ورائها جميعاً توفيق الله تعالى و هدايته ، و بالإضافة إلى ذلك ، فهى تقدم دليلاً عمليا على عناية الإسلام بالعقل و التفكير ، فقد جعلهما مدخلاً إلى العقيدة و الإيمان ، وهو ما يرّد

على الذين يسيئون إلى الإسلام و ينفون عن شريعته احترام العقل و التفكير ، وما أكثر الآيات الكريمة التى وردت فى القرآن الكريم تحضّ على استخدام العقل و التفكير و التدبر و التأمل وفى الوقت ذاته تزرى بالتقليد و المقلدين . و الذين يتبعون غيرهم دون تفكر أو تعقل والصحابى الجليل فى هذه القصة " ضمام بن ثعلبة " من بنى سعد واحد من الذين دخلوا إلى ساحة الإسلام من خلال العقل والتفكير. أى أصبح مسلماً بعد اقتناع عقلى وفكرى بصدق الرسالة و الرسول .

إن القصة النبوية الشريفة تصف لنا ضماماً وصفاً خارجيّاً مباشراً ، كما تصفه لنا من الداخل وصفا ضمنيا عبر الحوار.

فهو من الخارج رجل جلد ، أى قوى البنية شديد البأس ، وهو أشعر ، أى غزير الشعر الذى يغطى أنحاء جسده ، و خاصة الأطراف و هذا ما جعله يعقص شعره أى يضفره فى ضفيرتين أو غديرتين ، و هذه طبيعة الناس فى البادية فى ذلك الزمان مما يدل على القوة و الخشونة عموما لمواجهة قسوة الصحراء أو البيئة التى تتطلب ذلك النوع من الرجال الذى يقدر على التكيف معها .

و سوف نرى من الحوار أن هناك طبيعة خشنة قوية ، تتلبس ذلك الرجل القادم من بنى سعد ليكتشف من هو محمد ؟ وما هو الدين الجديد الذى جاء به ؟ وهل هو حقيقى أم لا ؟

ولا شك أن الرجل وقد بعثه بنو سعد ، فقد زوّدوه بطرف من تاريخ محمد و نسبه نلحظه فى سؤاله الخشن : أيكم ابن عبد المطلب ؟

وعبد المطلب هو جدّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكان مشهوراً فى الجاهلية وارتبط اسمه بحادث أبرهة الأشرم الذى جاء مكة بأفياله غازياً يريد أن يهدم الكعبة وقد تصدى له عبد المطلب طالباً منه أن يترك ممتلكاته أما البيت فله رب يحميه ، وقد ردّ الله أبرهة على عقبيه بعد أن أرسل عليه و على قومه طيراً

أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . إذاً عبد المطلب له شهرة داوية وله صيت ذائع ولذا رأينا ضمام بن ثعلبة ، لم يسّم محمداً باسم أبيه عبد الله ، ولكنه نسبه إلى جدّه عبد المطلب الذى تعرف الجزيرة العربية سيرته ، ولا ننسى أن عبد المطلب هو الذى ربى محمداً وهو صغير بعد أن فقد والده عبد الله ، و مهما يكن من أمر، فإن ضمام سأل عن ابن عبد المطلب ، وأجاب النبى – صلى الله عليه وسلم – دون غضاضة أو انفعال : أنا ابن عبد المطلب !

النبى – صلى الله عليه وسلم – هو الداعية ، والداعية لابد أن يصبر ويحتمل، حتى لو كان المدعو خشناً وفظاً فى كلامه وسؤاله ، وإلا ما استحق شرف الدعوة ، إن ضمام بن ثعلبة يعلن دون مواربة أنه سيسأل ابن عبد المطلب ، وسيغلظ عليه فى السؤال ، ولكنه يطلب منه أن لا يغضب عليه وألا يحمل فى نفسه شيئا منه ، ويجيبه الهادى البشير بصبر الداعية وأخلاق الدعوة :

" لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك " أى إنه يخبره أن نفسه صافية لا تعرف الغضب من أجل النفس ، ولكنها تحتمل فى سبيل الدعوة ..

وهنا نجد السؤال الأول من ضمام يتعلق بصدق الرسالة والرسول .. أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آلله بعثك إليه رسولاً ؟ فيجيبه النبى صلى الله عليه وسلم – ببساط شديدة مؤكدا بعثته : اللهم نعم ، وسنرى الحوار يمتد ليتأكد ضمام من صدق الرسالة والرسول كى يدخل الإسلام .

**** ****

قصة إسلام صحابى جليل (٢)

كان ضمام بن ثعلبة فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قد قدم على النبى – صلى الله عليه وسلم – و أغلظ فى سؤاله أو أسئلته التى توالت على النحو التالى :" قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة ، فريضة ، الزكاة و الصيام والحج و شرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده فى التى قبلها حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله، و سأؤدى هذه الفرائض ، و أجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن صدق ذوالعقيصتين دخل الجنة " قال : فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات و العزى !

قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون !! قال : ويلكم إنهما و الله لا يضران ،ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً و أنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده و رسوله ، و قد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه .

قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

قال ابن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة ".

....

يبدو ضمام بن ثعلبة فى هذه القصة يسعى من خلال الإغلاظ فى القول للرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى اكتشاف الحقيقة المقنعة . فقد جاء من بنى سعد ليعلم هل هذا الدين الجديد حق أم باطل ، و لأنه رجل لا يهوى تضييع وقته سدى أو فيما لا يفيد ، فهو يريد أن يصل إلى الصواب فى هذا الأمر الذى أثار حركة

فكرية عارمة فى أنحاء الجزيرة العربية كلها ، ما بين مؤيد ومعارض ، بين من يريد الحفاظ على التقاليد و عبادة الأصنام ، ومن يريد التعرف على الحقيقة و اتباعها مهما كان الثمن ..ومن ثم ، فإن ضمام بن ثعلبة يغلظ فى أسئلته و يخشن ، و يقدم لهذه الأسئلة تقديماً يجعل المسئول أيا كان لايجيب بغير الحقيقة ، فهو يبدأ السؤال بمناشده المسئول بالله " أنشدك الله إلهك و إله من كان من قبلك و إله من هو كائن بعدك .. " ثم يطرح سؤاله عن البعثة والتوحيد و خلع عبادة الأصنام ، و فرائض الإسلام و الشرائع كلها .. و الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجيبه بعبارة مؤكدة وقاطعة : " **اللهم نعم** "..

ومن الأسئلة و الإجابات التى تتدرج فى تصاعد شائق يشد المستمع أو القائمة إلى القصة النبوية الشريفة ، نجد " ضماما " يقتنع بالإجابات ، و يرتب عليها قراره التاريخى بإعلان الشهادتين و الدخول إلى ساحة الإسلام الخضراء الرحبة .. و يعلن أمام النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه سيؤدى الفرائض التى فرضها الإسلام و الشرع الحنيف و سيجتنب مانهى عنه ، ولن يزيد ولن ينقص . ثم ينصرف إلى بعيره راجعا إلى قومه .

وهنا تكون البشارة النبوية المشروطة حيث يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم " إن صدق ذو العقصيتين دخل الجنة " إى إن صدق ضمام بن ثعلبة صاحب الضفيرتين أو الغديرتين فى إسلامه فهو من أهل الجنة .

هذه البشارة المشروطة كأنها حقيقة ، فقد رجع ضمام إلى قومه ، وحين وصل عندهم اجتمعوا به ، و بدأت تستبين ملامح صدقه و إخلاصه للدين الجديد ، و لقد **كان أول من قاله لهم** :" **بئست اللات و العزى !** "

إنها صدمة فاجعة لقومه الذين يعبدون اللات و العزى و يقدسونهما .
وها هو ضمام يعود من لدن محمد – صلى الله عليه وسلم – فيذمّ آلهتهم و فى مقدمتها " اللات و العزى " مما يدفعهم إلى نهره و مطالبته بالسكوت ، و تخويفه من الإصابة بالبرص و الجذام و الجنون !

" مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !!"

ولكن الرجل العاقل الذى اقتنع بالإسلام و آمن به يردّ عليهم رداً عقلياً ومنطقياً غاية فى البساطة، بعد أن ينذرهم بالويل و الهلاك إذا استمروا على حالهم .

" و يلكم ، إنهما و الله لا يضران ، ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

لقد ترتب على هذا الإقناع العقلى المنطلق أن قوم ضمام ، رجالاً ونساءً أمسوا مسلمين لله وحده ، تاركين عبادة اللات و العزى ، داخلين إلى ساحة الإسلام الخضراء الرحبة كما سبق و أن دخلها ضمام .

إن قصة إسلام ضمام بن ثعلبة تقدم لنا من خلال حواره مع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قومه من بعد ، نموذجاً للعقل الإنسانى حين يتجرد من الغرض والهوى و يسعى إلى معرفة الحقيقة و الصواب ، مهما كلفه ذلك من مشقات و التزامات وهو ما يؤكد على احترام الإسلام للعقل و التفكير ، و يقدم برهاناً على ذلك أمام الخصوم وأعداء الإسلام الذين يصمونه بالخرافة و الأسطورة.. إن الإسلام دين الفطرة السليمة التى تؤكد على ملكية الإنسان المسلم لأجمل نعمة من نعم الله ؛ وهى العقل السليم الذى يقود صاحبه إلى آفاق الحرية و العمل والإنتاج و القوة و الإبداع و قبل ذلك الإيمان والتوحيد .

**** ****

زيجة مباركة

عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت :لما قسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس ، أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تستعينه فى كتابتها .

قالت عائشة : فوالله ماهو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها – صلىَ الله عليه وسلم – ما رأيت فدخلتْ عليه ، فقالتْ :

يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارثِ ، سيد قومه ، و قد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى ، قال : " فهل لك خير من ذلك ؟ " .

قال : " أقضى عنك كتابتك و أتزوجك " . قالت : نعم : يا رسول الله .

قال : " قد فعلت " .

قالت : و خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد تزوج جويرية ابنة الحارث .

فقال الناس : أصهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أرسلوا ما بأيديهم .

قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

حديث صحيح ، أخرجه أحمد و تابن سعدون و أبو داود و غيرهم .

....

هذه قصة مهمّة لأن لها أبعاداً عديدة ، و هى فى الوقت نفسه تقدم لنا أحداثها من خلال تشويق واضح ، تصنعه الغيرة ، و الأسر ، و التسامح . و تأتى فى سياق انتصار الإسلام المتصاعد على أعدائه و إخضاع خصومه لمنطقه العادل ، وتشريعه الإنسانى .

لقد انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق على محاربيهم ، و أخضعوهم ، وأمنوا شرّهم ، وكما هى طبيعة الحرب فى ذلك الزمان ، كان الغالب يستحوذ على المغلوب و يغنم ممتلكاته و أهله .. و بعد أن تضع الحرب أوزارها يبدأ المنتصرون فى تقسيم الغنائم وفقاً للتشريع السائد ، وكانت سورة الأنفال ، قد أوضحت تقسيم الغنائم عند المسلمين فى قوله تعالى : "يسألونك عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (الأنفال :١)

و قوله تعالى فى السورة ذاتها :

"وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ " (الأنفال :٤١)

و عند تقسيم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس أو ابن عم له ، أى صارت ملكا له بوصفها أمة أو رقيقاً يتصرف فيها كيف شاء وفقا لنظام الرق السائد آنئذ فى العالم كله .. ولكن الإسلام وضع نظاماً يتيح للارقاء أو العبيد أن يحرروا أنفسهم وذلك من خلال " المكاتبة " أى الاتفاق بين العبد و سيدّها على دفع مبلغ معلوم أو القيام بعمل معين إلى أجل معين ، نظير الحرية والانعتاق من الأسر.

و قد كاتبت " جويرية بنت الحارث " سيدّها ، لتنال حريتها و عتقها وقد ذهبت إلى الرسول – صلى الله عليه وسام لتستعين به على مكاتبتها ، فعرض عليها الرسول صلى الله عليه وسلم – عرضاً أفضل ، وهو الزواج منها مقابل قضاء ما التزمت به لسيدّها . فقبلت جويرية هذا العرض ووافقت على الزواج ، الذى كان سبباً فى عتق مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

كانت هذه الزيجة المباركة خيراً و بركة على أهل جويرية ، حيث تم فكّ أسرهم و تحريرهم ، و ما عُرفت امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

و سوف نرى أن حركة الأحداث فى القصة تتصاعد لتكشف عن طبيعة النفس البشرية و العلاقات التى تحكم الإنسان بأخيه الإنسان سواء كانت علاقات فطرية أم غيرها .

هانحن نجد عائشة رضى اللّه عنها ؛ تستشعر بطبيعة الأنثى غيرة واضحة من أنثى أخرى وصفتها بأنها " امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه " ، أى إن جمالها يؤثر على من يراها ، وحين علمت أنها أى هذه الأنثى الحلوة " جويرية " تريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كرهتها ، و عرفت أنه سيرى منها ما رأت . و الغيرة الأنثوية أمر طبيعى بين النساء ، و خاصة إذا كانت الأخرى ستشاركها الرجل الذى تحبّه ، ولكن الغيرة هنا لا تتعدى الطبيعة الفطرية إلى التعبير السلوكى الذى يتخذ أشكالاً غير طبيعية تصيب الآخرين بالأذى و الألم .

ولا شك أن زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان لغاية أخرى تتجاوز مجرد الزواج و البناء بامرأة من النساء ، وهذه الغاية تتضح من خلال القصة التى تشير إلى تأليف المجتمع الإسلامى و ترابطه ، فزواجه - صلى الله عليه وسلم - من جويرية انعكس على أهلها الذين أطلق سراحهم و صاروا أحراراً يخدمون المجتمع الإسلامى ويعززون قدرته ويدافعون عنه ، بعد أن كانوا خصوماً له و أعداءً .

و نلاحظ أن هذا الزواج انعكس أيضا على المسلمين الذين شاركوا فى الفرح و أرسلوا ما بأيديهم أى الهدايا تعبيراً عن سرورهم بما تمّ فى بيت النبوة ، مما يعنى أن نفوسهم خلت من الغضاضة تجاه بنى المصطلق الذين صاروا إخواناً لهم فى الدين .

لقد كانت " جويرية " امرأة ذكية بحق أراد الله لها الخير كل الخير - حين قبلت عرض الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - و تزوجته ، فأكرمها وأكرم قومها .. هذا و بالله التوفيق .

obeikandi.com

إيمان الفطرة -١

عن محمود بن لبيد ، رضى الله عنه ، قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم :

" هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ " فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً و أنزل علىّ الكتاب ".

قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، و تلا عليهم القرآن ، قال: فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثا:أى قوم هذا و الله خير مما جئتم له ....

حديث حسن ، أخرجه أحمد و البخارى و الحاكم و غيرهم

....

هذه القصة النبوية تقدم لنا صورة من الحياة فى الجاهلية قبل أن يدخل الناس فى دين الله أفواجاً . فقد كانت القوة هى المهيمن أو المسيطر على العقلية العربية السائدة آنئذ . ومن لا يملك القوة فإنه لا يستطيع أن يعيش عزيزاً مكرَّماً .. بل يبقى تحت رحمة الآخرين ، مهدداً ذليلاً ، يتعرّض للمهانة كلما سنحت الفرصة لغيره .. هذا هو منطق الواقع الصحراوى الخشن الذى لا تحكمه قوانين ولا تحميه حكومة راسخة ..

لقد ذهبت بنو عبد الأشهل بقيادة أبو الحيسر أنس بن رافع من المدينة ، وكانت تسمى يثرب ، إلى مكة كى يتحالفوا مع قريش على قومهم من الخروج ، والحلف يعنىْ النصرة والمؤازرة و القتال إلى جانب الحليف ضد خصومه و أعدائه . ومجىء بنى عبد الأشهل من مسافات بعيدة لطلب التحالف من قريش ؛ يعنى أن

القوم كانوا فى وضع حرج للغاية ضد خصومهم ، فلو كان الأمر محدوداً لتحالفوا مع أقرب القبائل إليهم حول المدينة أو على مسافة قصيرة منها ، ولكنهم قطعوا مئات الأميال بحثاً عن حليف يحقق لهم الفوز و المساندة أمام العدّو أو الخصم .

ولا شك أن حياة صعبة مثل هذه الحياة التى يحياها بنو عبد الأشهل ، وغيرهم من القبائل و العشائر و البطون العربية قبل الإسلام ، تكشف لنا عن نعمة كبيرة أسبغها الله سبحانه وتعالى على العرب الذين خلوا فى دين الله أفواجاً ، فتحقق لهم الأمن والرخاء ، واستظلوا بنعمة الأخوة فى الدين ، وهى الأخوة التى حطمت العصبية الجاهلية ، وجعلت العرب المسلمين يحظون بنظام إنسانى رائع يقوم على الأخوة والمساواة و العدل ، وتراجعت فكرة " الهيمنة للقوى " أو "السيطرة للغالب " لتحل محلها قيم أخرى تحّض على الخير و المعروف و العفو و التسامح .. فلم تعد القبائل فى حاجة كى تعيش بكرامتها إلى التحالف مع قبائل أخرى تسندها و تعضدها .. وصار ضميرها الداخلى هو الذى يحركها بمنهج الإسلام ونظامه و تشريعه ، فلا يبغى أحد على أحد ، ولا يجور فريق على فريق .. لقد انتقل المجتمع إلى وضع آخر فيه حضارة و إنسانية و تناغم شامل ، و ينطلق من مفاهيم الإسلام وتشريعاته ، بوصفه كتلة واحدة لا قبائل متناحرة ..

سمع الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوفد بنى عبد الأشهل القادمين من يثرب للتحالف مع قريش على قومهم ، و عرف أنهم آتون استعداداً لحرب قد تأكل الأخضر و اليابس ، ولكنها بمفهومها تحفظ عرينهم و تبقى على شوكتهم ، فقام بواجبه الدعوى مباشرة ، و ذهب إليهم و جلس معهم ، و سألهم : " هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ "

أى إنه عرض عليهم أمراً هو أفضل و أحسن لهم و أقل تكلفة مما جاءوا من أجله ؛ لأنه سيوفر لهم الأمان و العزة و الكرامة . وقد استفسروا منه – صلى الله عليه وسلم قائلين : وما ذاك ؟ أى ما هو الأمر الذى تعده خيراً مما جئنا من أجله ؟

فحدثهم عن بعثته صلى الله عليه وسلم و دعوته إلى التوحيد ، و نزول القرآن عليه .

لقد عرض الرسول الكريم أسس الرسالة ، و عرّفهم بنفسه بوصفه رسولاً ونبيّاً " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علىّ الكتاب " ، و بالضرورة لابد أن تبدأ الدعوة أو أمر الدعوة بقضية العقيدة أو الإيمان ، فالتوحيد هو أساس العقيدة و الإيمان ، و العرب على ما نعلم فى ذلك الزمان كانوا يعبدون الأصنام و الأوثان ، و يشركونها بالله ، و يقدمون إليها القرابين بوصفها تضر و تنفع من منظورهم ، ولكن الدعوة إلى التوحيد تغيّر كل ذلك ، و تحدث إنقلاباً فى العقلية العربية ومن تداعيات هذا الإنقلاب تغيير النظرة إلى الآخرين و الخصوم ، و تحوّل السعى إلى التحالف لمقابلة الخزرج من جانب بنى عبد الأشهل إلى شىء آخر.

إن شرح الإسلام من جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – و تلاوة القرآن الكريم ، على وفد بنى عبد الأشهل فتح فى عقولهم آفاقا جديدة ، و كانت الاستجابة الفطرية للإسلام من جانب هذا الغلام المسمى " إياس بن معاذ " الذى خاطب قومه بتلقائية فطرية .

" هذا و الله خير مما جئتم به " ! فماذا جرى لهذا الغلام ؟

**** ****

"إيمان الفطرة " - ٢

حين عرض النبى - صلى الله عليه وسلم - الإسلام على وفد بنى عبد الأشهل الذين قدموا مكة للتحايل مع قريش على قومهم مع الخزرج ، **قال إياس بن معاذ** : يا قوم ؛ هذا و الله خير مما جئتم له .

قال راوي الحديث : فأخذ أبو الحيسر بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، **وقال** : دعنا منك . فلعمري لقد جئنا لغير هذا :

قال : فصمت إياس ، وقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ،وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج .

قال ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ،ويكبره ، ويحمده ،ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما . لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس . حين سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما سمع .

....

لقد دفعت الفطرة النقية السليمة الغلام الحدث ؛ إياس بن معاذ إلى الإيمان مباشرة ، عقب سماعه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بيان لمعنى الإسلام والتوحيد ،وقراءة آيات من القرآن الكريم .. لقد دخل الحديث إلى قلب الفتى التقي فآمن من فوره . وهتف بقومه : " هذا والله خير مما جئتم له ".

إذا كان القوم قد جاءوا إلى مكة لما يحفظ لهم أمر الدنيا . فالإسلام يحفظ لهم أمر الدنيا والآخرة جميعاً ، و بطريقة أفضل و أحسن مما جاءوا من أجله .

بيد إن إسلام الفتى أو صيحته التى هتف بها فى قومه ، لم تعجب قومه أو كبارهم . فقد ألقى أبو الحيسر أنس بن رافع التراب فى وجه الفتى ، وقال : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا .

obeikandi.com

و هنا نكتشف مسألتين مهمتين الأولى : هى الاستهانة بصغار السن عموماً و عدم الاكتراث أو الاهتمام بآرائهم و أفكارهم ، و الأخرى ؛ هى التعصب للقديم والسائد دون تفكير فى صوابه أو خطئه ..

إن الاستهانة بالصغار مسألة غير مقبولة ، ولكنها قائمة فى المجتمعات المتخلفة التى تقيس الأمور بغير مقاييسها الحقيقية الدقيقة . هناك من يرى أن صغير السن أو الطفل لا قيمة لآرائه أو أفكاره . و أن القيمة كل القيمة للكبار و العجائز ، و هذا ليس صحيحاً على إطلاقه ، فالصغير أو الطفل إذا أحسنت تربيته كانت آراؤه صائبة فى الغالب ، و أفكاره جيدة فى معظم الأحيان ، حتى لو تعلق الأمر بقضية خطيرة مثل قضية العقيدة .

لقد أسلم على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وهو صبى لما يبلغ الحلم بعد؛ وكانت آراؤه و مواقفه منذ صباه من أفضل الآراء و المواقف ، فقد كانت يتمتع بذاكرة قوية وتفكير مرتب ووعى مرهف ، وهو ما جعل الصحابة – رضوان الله عليهم – يستفتونه فيما بعد فى أصعب المسائل الفقهية و أعقدها ، و يجدون عنده الفتوى الصائبة و الرأى السديد .

إن الاهتمام بالطفل بصفة عامة و بأفكاره – أيّاً كانت – أمر مهم ، لأن هذا الاهتمام يقوده و يوجهه إلى الطريق المستقيم و الفكر الصواب و العمل الخير إن شاء الله .

و يروى التاريخ الإسلامى حكايات عديدة كان فيها صغار السّن أكثر توفيقاً و أحكم رأيا من الكبار ، نظرا لما يمتازون به من صفاء الفطرة و نقاء السريرة، فضلاً عن خصوبة العقل .

و الفتى إياس بن معاذ ، و إن كان أصغر قومه بنى عبد الأشهل ، إلا إنه سبقهم بفطرته و طبيعته إلى الرأى السليم و الإيمان الصحيح .

أما التعصب للقديم والسائد دون وعى أو تبصر، فهو خلّة ذميمة أشار إليها القرآن الكريم فى أكثر من موضع، ووصف أصحابها بأنهم قوم لا يعقلون أى لا يستخدمون عقولهم فى التفكر والتدبر والتأمل واتخاذ القرار الملائم.

من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

"وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ" (الزخرف ٢٤:٢٣)

و قد قدمت السورة لهاتين الآيتين و غيرهما مما ورد فى سياقها بقوله تعالى: "حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ" (الزخرف ٤٣:١-٣)

إن طلب تحريك العقل هنا ضرورة لفهم ما يعرض وما يطرح من قضايا و أمور تخص العقيدة أو الإيمان أو غيرهما. ولكن النظرة القائمة على التعصّب دون تفكير تحجب عن أصحابها الحقيقة و الخير، وهو ما نراه الآن فى بعض المجالات. حيث يعتقد أصحابها و خاصة من دعاة التغريب و التبعية أنهم على صواب، وأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة.

إن أبا الحيسر أنس بن رافع لم يفكر حين نطق إياس بن معاذ بالإيمان، ورمى فى وجهه بالتراب، و قال متغطرساً: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا لم يستفد أبو الحيسر بدعوة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، ولكن الفتى الصالح كتم إيمانه و أسرّ عليه وعرف من حضروا وفاته أنه كان يهلل الله تعالى، و يكبره، و يحمده، و يسبحه حتى مات مسلماً، و تأكد هؤلاء أنه أسلم منذ كان مع قومه بنى عبد الأشهل فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم – ووعى ما قاله و تأثر به، و إن كان لم يستطع أن يواجه زعيم قومه أبا الحيسر أنس بن رافع، أو يقف فى طريقه لحداثة سنه.

أول من صلى إلى الكعبة -١

يروى كعب بن مالك – رضى الله عنه – فيقول : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا و فقهنا ، و معنا البراء بن معرور سيدنا و كبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة . قال البراء لنا : يا هؤلاء إنى قد رأيت رأياً ، ووالله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟ فقلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألاّ أدع هذه البُنْيَة منى بظهر – يعنى الكعبة – و أن أصلى إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم – يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه .

فقال : إنى لمصلٍّ إليها ، فقلنا له : لكنا لا نفعل .

فكنّا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، و صلى هو إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة .

قال : وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، و أبى إلاّ الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا إلى مكة قال لى :

- يا ابن أخى . انطلق بنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه ....

حديث حسن ، أخرجه أحمد و الطبرانى و الطبرى و غيرهم .

....

تمثل هذه القصة لوناً من ألوان الحياة التى عاشها المسلمون الأوائل ، وكان التشريع الإسلامى لما يكتمل بعد ، فيحاول بعضهم إنطلاقاً من عواطفه ومشاعره تجاه بعض الأماكن أو الأفكار أن يجتهد فى أمور شرعية وفقا لهذه العواطف و المشاعر ، دون دليل حاسم أو فتوى تبيح فعله .

و قصة الحديث تحكى بضمير المتكلم خروج وفد من مسلمى المدينة المنورة فى طريقهم إلى مكة المكرمة بقيادة " البراء بن معرور" سيّد القوم و كبيرهم، و بينما هم فى الطريق إذا بالبراء بن معرور – رضى الله عنه – أن يصلّى نحو الكعبة، فهو لا يريد أن تكون بظهره ، أى خلفه .. كأنه يعّز عليه أن يصلى فى اتجاه آخر، لأن الكعبة أو البُنْية كما سماها ينبغى ألاّ يدعها بظهر منه ، أى يتركها فى خلفه و يتجه إلى غيرها .

وواضح أن هذه القصة جرت قبل تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكان لهذا التغيير صداه فى الواقع الإسلامى عند حدوثه ، فقد كانت عواطف المسلمين المهاجرين وفى مقدمتهم النبى – صلى الله عليه وسلم – تحمل حبّاً جارفاً لمكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق ، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يخاطبها بوصفها أحب بلاد الله إليه .

و قد نزلت الآية الكريمة لتحقق أمله – صلى الله عليه وسلم – بالاتجاه فى الصلاة نحوها أو نحو الكعبة تحديداً .

قال تعالى :"قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ "(البقرة ١٤٤)

إذاً هى القبلة التى يرضاها محمد – صلى الله عليه وسلم – و يرضاها المسلمون المهاجرون معه الذين يتوقون إلى التوجه نحوها ، و كذلك البراء بن معرور مع أنه من أهل المدينة المنورة .

وفى مجال عرض الرأى الذى ارتاه البراء بن معرور ، فإن الوفد المرافق له لم يؤيده ولم يتفق معه فيما ذهب إليه ، و قالوا له : والله ما بلغنا أن نبينا – صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . وهم يقصدون بالصلاة إلى الشام ، الصلاة نحو بيت المقدس فى فلسطين التى نسميها الآن بالقدس ، و فلسطين جزء من الشام .

و نلاحظ هنا أن الوفد المرافق للبراء بن معرور ، كان ملتزماً بما سمعه ويسمعه من النبى – صلى الله عليه وسلم – ولا يتجاوزه إلى اجتهاد شخصى أو رأى ذاتى لأن قضية الدين ليست خاضعة للرأى أو الاجتهاد ، خاصة فيما يتعلق بأمور العبادة التوقيفية أو التى يفصل فيها الوحى . لذا فإن قول الوفد للبراء " وما نريد أن نخالفه " يعنى التزامهم التام بمنهج الرسول الكريم و عدم خروجهم عليه .

ظل البراء فى جانب و الوفد فى جانب . هو يصلى إلى الكعبة وهم يصلون إلى بيت المقدس ، ومع أنهم عابوا رأيه و استهجنوا موقفه ، إلا إنه ظل يصلى إلى الكعبة حتى وصلوا جميعاً إلى مكة .

وقال البراء لكعب بن مالك – رضى الله عنهما – يا ابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا – يقصد صلاته إلى الكعبة – فإنه و الله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه .

كأن البراء استشعر أنه ارتكب إثماً ، أو استشعر حرجا بما فعله ، فكأن لابد أن يعود إلى المرجع الذى يحسم كل خلاف و يقضى بالحكم الصائب .

و العودة إلى المرجعية الإسلامية منهج إسلامى ناضج ، يوجه إلى الصواب و يقضى على كل خلاف ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن أى خلاف

ينشب بين المسلمين فيجب ردّه إلى هذه المرجعية التى تفصل فى كل شىء ؛ صغيراً أو كبيراً .

قال تعالى : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا "(النساء : ٥٩)

و قال تعالى :

"وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا "(النساء : ٨٣)

و قال تعالى :

"وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ "(الشورى :١٠)

المرجعية إذاً هى الله و رسوله ، وهى المرجعية التى راح البراء بن معرور يحتكم إليها بحثاً عن الصواب .

**** ****

أول من صلى إلى الكعبة -٢

لما شعر البراء بن معرور بالحرج مما فعله ، ومن مخالفته للوفد المرافق له بالصلاة نحو الكعبة ، وهم يصلون نحو الشام ، طلب من كعب بن مالك رضى الله عنه أن يذهبا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – **فقال :هل تعرفانه ؟ فقلنا** : لا . **قال** : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ **قلنا** : نعم .

قال : وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً .

قال : فإذا دخلتم المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، **قال** : فدخلنا المسجد فإذا العباس – رضى الله عنه – جالس ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– جالس معه فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للعباس :" هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ ".

قال : نعم . هذا البراء بن معرور سيد قومه ، و هذا كعب بن مالك .

قال :فوالله ما أنسى قول رسول الله– صلى الله عليه وسلم – "**الشاعر؟** ".

قال : نعم ، **فقال البراء بن معرور** : يا نبى الله ، إنى خرجت من سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام – فرأيت ألا أجعل هذه البَنِيَّةَ منى بطهر فصليت إليها وقد خالفنى أصحابى فى ذلك .

حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء . فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال : " قد كنت على قبلةٍ ، لو صبرت عليها ".

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصلى معنا إلى الشام .

....

كان إحساس البراء بن معرور بشىء فى نفسه ، وراء ذهابه مع كعب بن مالك إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوصفه المرجعية التى ينبغى الاحتكام

obeikandl.com

إليها ، ومعرفة الصواب من الخطأ فى حضورها ، فراح مع كعب يسألان –صلى الله عليه وسلم – و نلاحظ هنا أن بعض القوم فى يثرب قد سمعوا عنه ولم يروه ، وأسلموا بناء على ما وصل إليهم من أصول الدين و مفاهيمه ، فهما مثلا يسألان رجلاً من أهل مكة كعادة الغرباء حين ينزلون قرية أو مدينة يريدون بعض أهلها فيسألون من يقابلهم فى الطريق ، و يتصّور الرجل أن معرفتهما به ستسهل مهمتهما فى الوصول إليه ، فيسألهما - أتعرفانه ؟ ولكنهما لا يعرفانه و إن كانا يعرفان عمه العباس بن عبد المطلب بحكم أنه كان تاجراً يتردد عليهم فى المدينة وهذه المعرفة سهلت عليهم الوصول إلى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – لأنه كان يجلس بجوار عمه كما أخبرهم الرجل الذى سألاه عنه .

و نكتشف من حوادث القصة أن المسجد ، والمقصود به هنا الكعبة أو البيت الحرام ، له دور كبير فى حياة الإسلام و المسلمين ، فهو مقر الرسول – صلى الله عليه وسلم وهو بالتالى مصدر الإسلام بعقيدته و تشريعاته ، و إليه يأتى الناس من كل مكان ، ليقابلوا نبى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – و يتعرفوا على الدعوة و الداعية .

وسنجد أن المسجد – بعد الهجرة – يتطور دوره ليكون شبيها بمقر الحكم للدولة الإسلامية الجديدة ، و مجلساً للشورى ، ومكانا لأهل الحل و العقد ، و مركزا لاستقبال السفراء والوفود ، ومنطلقا لقرار الحرب و توقيع اتفاقيات السلم والهدنة..

و هاهو البراء و معه كعب يصلان إلى المسجد ، و يجلسان إلى العباس ويجواره النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى يسأل عمه عنهما :" هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟"

نلاحظ فى سؤاله – صلى الله عليه وسلم – لعمه العباس نموذجاً للأدب الرفيع فى المخاطبة و السؤال – فهو لا يسأله مستخدما اسمه المجرد ، بل يستخدم الكنية " يا أبا الفضل "، وما زال استخدام الكنية حتى اليوم فى البلاد العربية - أو كثير منها تعبيراً عن الاحترام و التوقير والقرب النفسى من المخاطب .

لقد أجاب العباس ، و عرّف بالرجلين تعريفاً يتجاوز الشخصين إلى مكانتهما . فهذا البراء سيد قومه ، و كعب بن مالك . و يعقب الرسول – صلى الله عليه وسلم على إجابة عمه العباس حين ذكر كعبا بقوله : " الشاعر ؟ " و هذا التعقيب أو تلك الصفة التى سأل عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم ينسها كعب بن مالك .

وقد أقسم على ذلك . وصفة الشاعر بالنسبة للشعراء أغلى من كل الصفات الدنيوية الأخرى ، و سنجد فيما بعد أن كعباً الشاعر سيكون له دور عظيم فى المنافحة عن الإسلام و المسلمين بشعره ، و سيكون مدفعية ثقيلة تدك معاقل الكفر بأبيات الشعر المؤثرة مع عبد الله بن رواحة و حسان بن ثابت رضى الله عن الجميع .

بعد التعارف يعرض البراء بن معرور موضوعه أو مشكلته ، و يقول : فرأيت ألا أجعل هذه البُنية – أى الكعبة – منى بظهر فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

الرجل يعترف بما حدث اعترافاً دقيقاً ، و يطلب الرأى من الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأنه هو المرجعية التى يحتكم إليها المختلفون . ولأن المسألة مرتبطة بالوحى الذى لم يغيرها ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول له :

" قد كنت على قبلة لو صبرت عليها "..أى إنه بطريقة ذكية وبارعة ينبهه إلى خطئه و صواب رفاقه ، و يخبره أن الصلاة إلى الشام هى التشريع الصواب الذى كان ينبغى أن يتبعه . فيعدل البراء عن رأيه حتى تتغير القبلة إلى مكة فيما بعد الهجرة بأمر إلهى يستجيب لعواطف النبى – صلى الله عليه وسلم – ومشاعر المسلمين .

"....فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ...."(البقرة ١٤٤)

**** ****

الإسلام عند الموت - ١

بعث جندب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - إلى عسعس بن سلامة، زمن فتنة ابن الزبير، فقال: اجمع لي نفراً من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولاً إليهم.

فلما اجتمعوا جاء جندب و عليه بُرْنسٌ أصفر، فقال: تحدثوا بما كنتم تحدثون حتى دار الحديث فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه فقال: إني أتيتكم ولا أريد أن أخبركم عن نبيكم، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، و إنهم التقوا - فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، و إن رجلاً من المسلمين قصد إلى غفلته.

قال: و كنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف، قال: لا إله إلا الله فقتله فجاء البشير إلى النبي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله فأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه فسأله، فقال: " لم قتلته ؟ ".

قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، و قتل فلاناً و فلاناً، و سمّى له نفراً، وإني حملتُ عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أقتلته؟".

قال: نعم. قال: " فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!".....

حديث صحيح أخرجه مسلم و غيره.

....

تعالج هذه القصة أمراً حساساً فى حياة المسلمين ، وهو حرمة الدم الإسلامى و عدم استحلاله تحت أى ظرف من الظروف . فالمسلم له ذات إنسانية مصونة ينبغى ألا يقترب منه أحد بالإهدار إلا بحق ، وليس أى أحد يجوز له أن يقتل مسلما أو يسفك دمه تحت أى دعوى من الدعاوى ، مالم يكن ذلك بحكم قاض يقضى بالقصاص منه لقتل إنسان آخر ، أو كفر بواح فيه محاربة لله ورسوله أو فساد فى الأرض .

و تأكيد حرمة الدم الإسلامى مسألة ممتدة فى كل الأحوال والظروف والعصور وخاصة فى زمن الفتن التى يقتتل فيها المسلمون ، و يسفك بعضهم دم بعض . فكل المسلم على المسلم حرام دمه و ماله و عرضه ، و مطلوب خاصة فى هذه الأيام إعادة التذكير بهذا الحكم الإسلامى الذى يستهين به بعض الناس ، تحت دعاوى مختلفة فيستبيحون الدماء و يستحلون النفوس و يفترون على الله والإسلام مما لم ينزل به وحى أو يتحدث به تشريع .

إن جندب بن عبد الله البجلى – رضى الله عنه – يطلب من عسعس بن سلامة فى زمن فتنة ابن الزبير، أن يجمع نفراً ، أى مجموعة من إخوانه ؛ حتى يحدثهم . وكأن جندب قد استشعر فداحة الفتنة القائمة بين المسلمين على عهد عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – فيقتل المسلم أخاه المسلم ، و تتقطع الأرحام ، وتسيل الدماء وكل فريق من المتقاتلين يدّعى أنه على الحق و الصواب ، و نسى الجميع أن كل المسلم على المسلم حرام : دمه و ماله وعرضه ، و أن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد عصم دمه .

لقد جاء جندب بن عبد الله البجلى ، وهو يرتدى بُرْنساً ، و البرنس هو كل ثوب رأسه ملتصق به دراعة أو جبّة أو نحوهما ، فحسر البرنس عن رأسه ، وقال لمن جمعهم عسعس بن سلامة إنى أتيتكم لا أريد أن أخبركم عن نبيكم – صلى الله عليه

وسلم - بل أردت أن أحدثكم حديثا مفتوحاً من القلب ، ولكنى الآن أريد أن أحدثكم من عند نفسي ، ثم أخبركم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعث بعثاً من المسلمين ، أى فريقاً إلى قوم من المشركين لقاتلتهم ، وكان فى المشركين رجل فائق القدرة ، ويستطيع أن يقتل كل من يقف أو يقع أمامه من المسلمين ، فحاول بعض المسلمين مغافلته لقتله والتخلص منه ، حتى تمكن منه أسامة بن زيد فرفع عليه السيف وحينئذ فإن الرجل المشرك نطق بالشهادة قائلاً : **لا إله إلا الله** ، ولم يعبأ أسامة بهذا النطق ، وهوى عليه بالسيف وقتله !!

رجع المسلمون ، وأخبروا النبى - صلى الله عليه وسلم - بأمر بعثتهم وانتصارهم على المشركين ، وقصوا عليه ، ما كان من أمر أسامة والمشرك الذى أسلم قبل الموت ، وهنا سأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - **أسامة بن زيد** :

" **لم قتلته ؟**"والسؤال كما نرى فيه استنكار واستهجان لقتل من قال : لا إله إلا الله ، حتى لو قالها بمجرد اللسان ، ويدافع أسامة عن نفسه قائلاً :

- يا رسول الله ، أوجع فى المسلمين ، وقتل فلاناً وفلاناً ، وسمّى له نفراً وإنى حملت عليه ، **فلما رأى السيف قال** : لا إله إلا الله .

وهنا يأتى الرّد فى استنكار واضح من الرسول -- صلى الله عليه وسلم .

" **أقتلته ؟**"**فيقول أسامة** : نعم .

فيبكّته الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلاً :

" **فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟**".

وكانّ لا إله إلا الله . ستسائل كل من يقتل مسلماً بغير حق ، وستكون خصماً له يوم القيامة تطالب بدمها المهدر وحياتها الضائعة ...

إن هذا السؤال يأخذ بُعداً آخر.

**** ****

الإسلام عند الموت -٢

يستنكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قتل من ينطق بالشهادة .

و يقول لأسامة بن زيد : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟! " وهنا يرد أسامة معتذراً :

" يا رسول الله ، أستغفر الله .

قال :" وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟".

قال : فجعل لا يزيد على أن يقول : كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟"

و يحكى أسامة بن زيد – رضى الله عنه – القصة فيقول :

بعثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، و لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، **قال** :

فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكّف عنه الأنصارى ، و طعنته برمحى حتي قتلته .

قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبى – صلى الله عليه وسلم – **فقال لى** :

" يا أسامة ، أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله ؟! "

قال : قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً .

فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟!!"

قال :فما زال يكررها علىّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .

وفى رواية :" أفلا شققت عن قلبه حتى نعلم أقالها أمن لا ؟!".

....

تشير القصة النبوية إلى استنكار الرسول – صلى الله عليه وسلم – لقتل من يقول لا إله إلاّ الله ، و يدرك أسامة غضب الرسول –صلى الله عليه وسلم – من فعلته فيعتذر ويقول : " **يا رسول الله ، أستغفر الله** ".

فيكرّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – استنكاره لقتل من يقول لا إله إلا الله قائلاً :" و كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟! " و يتكرر هذا التساؤل الاستنكارى الرافض لقتل النفس البشرية بغير حق .

و هو ما يؤكده أسامة بن زيد فى سرده للقصة بنفسه ، حيث يصف بالتفصيل أحداث القصة كما يذكر أو يحدد مكانها الدقيق وهو الحُرقة من جهينة . لقد هزم المسلمون القوم ، ولحق أسامة مع رجل من الأنصار رجلاً من القوم المهزومين ، فلما لحقا به أو غشياه ، نطق بالشهادة فكّف عنه الأنصارى أى توقف عن ملاحقته و قتله . أما أسامة فلم يتوقف ، ولاحقه و طعنه برمحه حتى قتله .

إن أسامة يسرد أحداث قتل الرجل كما جرت ، وقد عرف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاطب أسامة وفقا لرواية أسامة قائلاً :

" يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟!".

فرد عليه أسامة :" يا رسول الله إنما كان متعوّذاً " ، أى قال لا إله إلا الله لكى لا أقتله .أو ليحفظ دمه .

ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى أغضبه قتل إنسان يعلن الشهادة ولو بلسانه يكرر السؤال مستنكراً ما فعله أسامة .

" أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ !! "

وما زال يكرر سؤاله الإنكارى حتى تمنى أسامة أن لم يكن قد أسلم قبل ذلك اليوم لإحساسه بفظاعة فعلته ، التى فعلها بحسن نية ظناً منه بأن الرجل نطق بالشهادة تقيه و خوفا من الموت .

إن الرواية الأخرى للحديث التى تقول على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا أسامة " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ ": تؤكد على أن المسلم يجب ألا يأخذ الناس بغير الظاهر ، أما الله فيتولى السرائر. يجب ألا نحاكم أحدا على نواياه المخبوءة بل نحاسبه على كلامه و أفعاله التى تصدر عنه علناً و بإرادته الحرّة أيضاً .

نحن لسنا مأمورين بالتفتيش فى أعماق القلوب و النفوس ، ولكننا نحكم على الأقوال و الأفعال التى نسمعها و نشاهدها ..

و إلاّ لو حكمنا بالنيات المخبوءة فإن الناس يقتل بعضهم بعضا هذا يرانى كافرا و أنا أراه كافرا ، فأبيح له أو أبيح لنفسى أن أقتله و يقتلنى ، و يتحول نظام المجتمع إلى فوضى و دم وخراب و العياذ بالله .

لقد حذر القرآن الكريم من القتل ، و صور لنا من يقتل نفساً بغير حق أو فساد فى الأرض كأنما قتل الناس جميعاً .

قال تعالى : "...مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ..." (المائدة :٣٢)

و تأمل قول الله تعالى :

"...وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا .."

لترى أن الإسلام دين الحياة و دين الرحمة .. أين ذلك من الذين يستبيحون حياة الناس و حرماتهم تحت ذرائع مختلفة ليست من الدين ؟

إن الحفاظ على حياة الناس أصل من أصول الإسلام ، لدرجة أنه يحذر من استخدام أية آلة يمكن أن تصيب أحداً دون قصد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مرّ فى مساجدنا ، أو أسواقنا ومعه نَبْلٌ فليمسك ، أو ليقبض على نصالها بكَفّه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء ، هو حديث متفق عليه ، ويبين لنا إلى أي مدى يحرص الإسلام على حياة الناس ودمائهم ؛ فالذى يمشى و معه سهم يجب أن يقبض على حديدتها أو رأسها حتى لا تصيب أحداً بمكروه سواء كان فى المسجد أو الشارع أو السوق أو أى مكان آخر.

**** ****

الصحابة و الحمى -١

تروى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - فتقول : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهى أوبأ أرض الله من الحمى . فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم .

قالت : فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، و بلال مواليا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد . فأصابتهم الحمى ، فدخلتُ عليهم أعودُهم ، و ذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، و بهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟

فقال :

كل امرىء مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت والله ما يدرى أبى ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة ، فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه ... كالثور يحمى جلده بروقه

فقلت : والله ما يدرى عامر ما يقول ، قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته ، فقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفج وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدونَّ لى شامةٌ وطفيل...

(حديث صحيح ، أخرجه مالك و البخارى و مسلم وغيرهم)

....

هذه القصة النبوية تكشف لنا جانبا من جوانب الابتلاء التى ابتلى بها المسلمون فى أوائل عهدهم بالهجرة . و هذا الجانب يتمثل فى الوباء الذى

أصاب المدينة المنورة و أهلها . و كانت الحمى ضيفاً ثقيلاً أصاب الصحابة رضوان الله عليهم و صرفه الله عن نبيه - صلى الله عليه وسلم .

و الحمى أو المرض عموماً يمثل اللحظة الحقيقية التى يعود فيها الإنسان إلى ذاته ليكتشف ضعفه و هوانه . إنه فى حال الصحة و العافية ينسى كثيراً من البديهيات ، وبعض الناس ينسى دينه و إيمانه و العياذ بالله - فيتجبر فى الأرض و يطغى على غيره من البشر ، ويظلم و يعربد ، و يظن أن الحياة ستظل هينة لينة رخاءً ليفعل ما يريد دون صعوبات أو معوقات .. ولكن المرض يعيده إذا كان ذا فطرة سوية و نفس نقية إلى الحقيقة التى تناساها ، و الحق الذى تجاهله فى غمرة قوته و عافيته فيجد نفسه ضعيفاً لا يقدر على شىء ، بل إنه أحياناً لا يستطيع أن ينتقل من موضع نومه أو مجلسه و يرى أنه محتاج إلى غيره ليساعده أو يعينه على بلائه الذى أصابه .

و هنا تكون العظة و الاعتبار " إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب " فاعتبروا يا أولى الألباب " .. فهناك قوة سرمدية ، أبدية أزلية ، يجب ألا نغفل عنها وهى الله جل و علا .

و عائشة رضى الله عنها تروى ما أصاب الصحابة من حمى المدينة ، و تقدم لنا حال بعض أسرتها الذين أصابهم المرض . أبوها أبو بكر ، و بعض مواليه: عامر بن فهيرة و بلال بن رباح ؛ رضى الله عنهم أجمعين .. كل منهم أصيب بالمرض، و صار قعيد البيت لا يبرحه ولا يغادره و انعكس المرض على كل منهم يذكره بالموت، و التذكار بالموت يعنى اكتشاف صلابة الإيمان و قوة اليقين ، ثم وهو الأهم الرضا بالقدر ، و الاستعداد للقاء الله .

إن أبا بكر يجيب عائشة ابنته وهى تسأله عن حاله : كيف تجدك يا أبت ؟ بقول الشاعر الذى يصوغ الحياة فى بيت محكم من الشعر يؤكد حقيقة يتناساها الناس فى غمرة الحركة اليومية :

كل امرىء مصبح فى أهله و الموت أدنى من شراك نعله

إن الموت قريب من الإنسان قرباً شديداً ، حتى لو تجاهله أو تغافل عنه ، ومثلما هى المسافة بين شراك النعل أو السير الذى يربط النعل على ظهر القدم ، وصاحب النعل قريبة للغاية . فالموت أيضاً قريب للإنسان قرباً شديداً .

تظن السيدة عائشة - رضى الله عنها أن أباها يهذى ، ولا يدرى ما يقول من شدة المرض أو الحمى فتذهب إلى مولاه عامر بن فهيرة ، وكان مسموحاً لنساء النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك الحين بالتحدث إلى غير بيت النبوة والظهور أمامهم ، قبل أن تنزل آية الحجاب فى تشريع خاص بهن " ..

".....وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ..."(الأحزاب : ٥٣)

إن عائشة تجد عامراً فى الحال نفسها التى رأت والدها عليها ، وهو يقول :

لقد وجدتُ الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه ... كالثور يحمى جلده بروقه

و يحمى جلده بروقه أى بقرنه . و الأرجوزه تؤكد على حضور الموت و قربه من الإنسان ، و فناء الدنيا الحتمى ، وهو ما يؤكده بلال رضى الله عنه أيضا ، حين يرفع صوته أو عقيرته حين تخف عنه الحمى ، فتسمعه عائشة يقول حالماً بالحياة وآملاً ..و إن كان يأس الحمى يستبعد الحلم و الأمل و يؤكد على الموت :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفج و حولى إذ خر و جليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدونْ لى شامةً و طفيل...

و الفج موضع بمكة ، و يقال إنه اسم واد دفن به عبد الله بن عمر ، و الإذخر و الجليل من النباتات ذات الرائحة الطيبة . أما مياه مجنة و شامة و طفيل فهى مواضع و كلها ترد على ذهن بلال المريض بالحمىّ الذى يستبعد الشفاء ورؤيتها من جديد.

****   ****

الصحابة و الحمى -٢

روت عائشة رضى الله عنها ما أصاب الصحابة من الحمى فى المدينة، وكشفت لنا مشاعر الموت و اليأس من المرض التى اعترت والدها أبا بكر و صاحبيه من الموالى : عامر بن فهيرة و بلال بن رباح رضى الله عنهم أجمعين .

قالت عائشة رضى الله عنها : فذكرت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم ، فقلت : إنهم ليهذون ، وما يعقلون من شدة الحمى .

قالت : فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" اللهم حبّب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدّها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة ".

و **يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما** : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم – لما قدم المدينة ، هو و أصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه – صلى الله عليه وسلم – حتى كانوا ما يّصلون إلا وهم قعود .

قال : فخرج عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم يصلون كذلك ، **فقال لهم** :" **اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم** "

قال : فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف و السقم التماسَ الفضل ".

....

الابتلاء سنة من سنن الله فى خلقه ، لمعرفة مدى صبرهم و احتمالهم ، واختبار صلابة إيمانهم و قوة يقينهم . ضعاف الإيمان يصيبهم الهلع و الرعب وينهارون سريعاً .

أما أقوياء الإيمان فيرّدون كلّ شىء إلى الله ، و يسلمون بقدر الله ، و يطلبون منه العون و السداد .

قال تعالى :"وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ "(البقرة ١٥٥-١٥٧)

و قال تعالى : "لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ "(آل عمران : ١٨٦)

والحمى التى أصابت الصحابة فى المدينة جعلتهم يتذكرون الموت أو ييأسون من الحياة ، والمشاهد التى رأتها عائشة رضى الله عنها لأبيها وعامر بن فهيرة و بلال بن رباح ، جعلتها تنقل ذلك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وتصف أقوالهم بالهذيان ، و أن الحمى أفقدتهم عقولهم .

و نرى تعليق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على ما قالته عائشة يتجه فى مسار آخر ، يتناول المدينة وطناً للمسلمين ، والدعاء بنقل الوباء إلى مكان آخر .

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يدعو ربه قائلاً :

" اللهم حبّب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدّها وصاعها ، وانقل وباءها إلى مهيعة ".

هذا الدعاء يشير إلى حبّ النبى – صلى الله عليه وسلم – لوطنه الأصلى مكة و يرّد على الذين يقولون إن الإسلام يتناقض مع الوطنية . فحب الأوطان و التمسك بها والدفاع عنها جزء من الإيمان ، ومن يفرط فى وطنه أو يقدمه للأعداء دون دفاع هو خائن لله ورسوله ، فالوطن هو أرض الإسلام التى ينبغى ألاّ يفرط فيها مسلم تحت أى ظرف من الظروف .

و النبى – صلى الله عليه وسلم – يطلب من ربّه أن يحبّب إليه و إلى الصحابة المدينة مثلما حبب إليه مكة أو أشد ، فهى البلد الذى آوى و نصر ،

وهى البلد الذى أولياؤه أولياء بعض ، مع ما أصابها من الحمّى ؛ يرجو أن يكون حبها مستمرا على أن يبارك فى قليلها و كثيرها أو حسب تعبيره – صلى الله عليه وسلم – مدّها و صاعها ، والمدّ والصاع من مكاييل الحبوب و نحوها ، والمد ربع الصاع ، و الصاع يبلغ نحو خمسة أرطال ، أى ما يزيد على اثنين من الكيلوات قليلاً بموازيين عصرنا ، و الرسول – صلى الله عليه وسلم – يطلب من ربه أن ينقل وباء المدينة إلى مهيعة أى الجحفة ، وهى موضع على طريق المدينة و كانت آنئذ يجتنبها الناس ، لأن ماءها كان يصيب من يشربه بالحمى ..

لقد كان ابتلاء المسلمين فى المدينة بالحمى تجربة شديدة ، ولكنهم تحملوها بصبر ورضاً .. أجهدتهم إجهاداً شديداً حتى إنهم كانوا لا يقدرون على أداء الصلاة وقوفاً ، فكانوا يؤدونها وهم قعود . وقد أخبرهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن فضل صلاة القاعد يساوى نصف فضل صلاة القائم ، وهو ما حفزهم على مغالبة مرضهم و تحمل أو تجشم الصلاة وهم وقوف على ماهم فيه من جهد و مشقة و مرض ..حرصاً على نيل ثواب الصلاة كله ، و فضلها كله ..

ولا شك أن الله سبحانه رءوف رحيم بعباده ، هو أرحم بهم من الأم بولدها ولا يكلّفهم ما لا طاقة لهم به ، ولكن القصة النبوية تشير إلى حرص المسلمين على أداء الصلاة فى صورتها المثلى لينالوا الفضل كله بإذنه تعالى .

ولا يعنى الصلاة قاعداً أنها غير مقبولة ، بل هى مقبولة إن شاء الله مادام صاحبها من ذوى الأعذار و الضرورات ، ولكن التشريع يحّض المسلم على الأداء الكامل للعبادات طالما أمكنه ذلك ولو فى شىء من المشقة ؛ ونحن نعلم أن صلاة النافلة تجوز من قيام وقعود للمريض و السليم على السواء ، ولكن صلاة القائم تفضل صلاة القاعد .. فاللهم اشف مرضانا وارحم موتانا ، وأهلك أعداءنا ، ولا تخيب رجاءنا ، ونجنا برحمتك من القوم الظالمين .

ألف دينار فى البحر

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :- " إن رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار. فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم .

فقال : كفى بالله شهيدا .

قال : فائتنى بالكفيل ..

قال : كفى بالله كفيلا .

قال : صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمّى ، فخرج فى البحر ، فقضى حاجته . ثمّ التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجّله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، و صحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجّ موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال :اللهم إنك تعلم أنى تسلّفت فلاناً ألف دينار ، فسألنى كفيلاً ، فقلت . كفى بالله وكيلاً ، فرضى بك ، و سألنى شهيداً . فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، و إنى جَهدتُ أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أجد ، وإنى أستودعُكها ، فرمى بها إلى البحر حتى وَلَجَتْ فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده . فخرج الرجل الذى كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال و الصحيفة . ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار وقال :- و الله ، مازلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت به .

قال : هل كنت بعثت إلى شيئاً؟

قال : أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئتُ فيه .

قال : فإن الله قد أدّى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً ".

(أخرجه البخارى ، و أحمد ، و البيهقى)

تحمل القصة التى وردت فى الحديث الشريف عناصر الحكى القصصى بما فيها من تشويق يصنعه تسلسل الأحداث ، و متعة يقدمها البناء القصصى حتى يصل القارئ أو السامع إلى نهاية القصة .

فهنـاك الحـدث أو الفكرة التى تتمثل فى قيام رجل من بنى إسرائيل بالاقتراض من رجل آخر مبلغ ألف دينار ، ويحاول الأول ردّ هذا المبلغ إلى الدائن أو المقرض فتعجزه الوسيلة ، فيضطر إلى إرسالها عن طريق خشبة يلقى بها فى البحر . حيث أخذ خشبة فنقرها : أى حفرها ، وصنع تجويفاً بداخلها يتسع للمال الذى اقترضه من الرجل مع رسالة تحمل اسم صاحب الدين . ثم زجج موضعها : أى سمّرها بمسامير كالزجّ لتكون محكمة الإغلاق فتنجو من رشح الماء الذى يمكن أن يفسدها بالبلل.ثم رمى بها إلى البحر حتى ولجت فيه ، أىّ دخلت فى البحر ، وعامت على سطحه ليحملها الموج إلى المكان المتوّقع إذا شاء الله . فقد جَهِد أن يجد مركباً : أى بذلّ غاية جهده لعله يجد مركباً يحمله إلى صاحب الدين حتى يؤديه إليه . وشاءت إرادة الله أن تصل الخشبة إلى صاحب الدين الذي أراد أن يتخذها وسيلة للتدفئة ، ولكنه عند نشرها : أى قطعها بالمنشار حتى يستخدمها وقوداً و حطباً يشعل فيه النار وجد المال والرسالة .

وهناك الزمان الذى تجرى فيه أحداث القصة ، وهو زمن بنى إسرائيل أى فى عصر بعيد ضارب فى القدم ، وهو زمن له دلالته فى سياق القصة حيث يشير إلى طبيعة الأخلاق و ثباتها لأنها مرتبطة بخصائص الإنسان و سلوكه فى كل زمان، فالإنسان لا تتغير خصائصه بتغير الزمان ولا تتغير قيمة النبيلة أو غير النبيلة بمرور الأيام ، فالخير هو الخير ، و الشر هو الشر ، وإن تغيرت الوسائل و الغايات .

وهناك المكـان الذى يشمل البحر و المركب و الخشبة . و البحر يشير إلى محيط كبير يتحكم فى حياة الناس أو يرتبط بها إلى حد كبير ففيه رزقهم ومعاشهم. يعطيه اللحم الطرى ، و ينتقلون فوقه من مكان إلى آخر عبر المركب والسفن ، كما تطفو فوقه الكائنات و الجمادات التى لا تغطس أو لا تغرق ، و كانت الخشبة

والمركب فى قصتنا مكاناً يطفو فوق الماء و يحمل بعض أطراف القصة أو أحداثها من موضع إلى آخر.

المركب تحمل المدين ، و الخشبة تحمل الدين - و المكان هنا يشير إلى اتساع الحياة باتساع البحر و يحدّد الحقوق كما تتحدد مساحة السفينة و الخشبة .

أما الشخصية القصصية - كما رأينا - فهى شخصية مبهمة منكّرة " رجل من بنى إسرائيل " ، و ذلك للدلالة على شيوع أمر " **المداينة** " بين الناس ، واحتياج كل شخص إلى غيره من الناس يقترض منه أو يقرضه مساعدة و تضامنا وتكافلاً و حلاً للمشكلات .

و الرجل الأول فى القصة (**المقترض**) يشبه الرجل الآخر (**المقرض**) فلا اسم لهما ولا مميزات ولا صفات إلا نسبتهما إلى بنى إسرائيل و عصرهم .

و يقوم الحوار بجلاء فكر الشخصية القصصية و تصوّرها عن المداينة وارتباطها بالإيمان العميق و الوثيق بالخالق جلّ و علا . فالرجل المقترض يطلب من صاحبه أن يسلفه ألف دينار . و هذا يطلب شاهداً فيقنعه بأن الله خير الشاهدين "**كفى بالله شهيدا**" ثم يطلب منه كفيلاً ، فيقنعه بأن الله خير الكافلين " **كفى بالله كفيلا** " ، **وحينئذ يقول له** : صدقت . إنه حوار موجز مكثف يبرز إيمان الرجلين ، الدائن و المدين و ثقتهما المطلقة فى الله سبحانه و تعالى شهيداً و كفيلاً لا يضيع الحقوق ولا يهدرها مهما حاول الناس إخفاء الحق أو طمس ملامحه ، فهناك من يرى و يسمع و يهيمن بقدرته على جميع المخلوقات فلا يظن أحد أنه يمكن أن يهرب بحق من حقوق الله .

و كما نرى فى سياق القصة نجد عقدتها تتمثل بالتدريج فى **الإقراض** دون شاهد أو كفيل إلا الله ، فالناس كما جرت العادة يُشهدون على معاملاتهم ، ويأتون بضامن يضمن ديونهم ، ولكن الرجلين ارتضيا عن إيمان أن يكون الله شهيداً و كفيلاً ..

ثم تزداد العقدة إحكاماً وقوة حين يعتزم المدين ردّ الدين ، فلا يجد مركبا أو سفينة تحمله إلى بلد الدائن أو المقرض وحين ييأس من وجود من يوصل الدين إلى صاحبه ، يفكّر بإرساله داخل تجويف خشبة يلقيها فى الماء ، واثقاً فى الله ومسلّماً إليه الأمر :" اللهم إنك تعلم أنى تسلّفت فلاناً ألف دينار، فسألنى كفيلاً ، فقلت : كفى بالله وكيلاً . فرضى بك .

وسألنى شهيداً ، فقلت كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أجد " وإنى أستودعكها .. فرمى بها إلى البحر ، حتى ولجت فيه ثم انصرف .."

وكأن القارىء أو المستمع يتشوق لمعرفة هل ستصل الخشبة إلى الدائن ويعثر على ما فيها من أمواله ؟ أو إنها ستذهب مع الموج إلى مكان آخر لا يعرفه أحد ، أو إنها ستصل إلى يد شخص آخر لا علاقة له بالدائن أو المدين ؟

هنا نجد القصة تقدم لنا صورة المدين وحرصه على تسديد دينه ، ولو اضطر إلى ذلك مرتين .. فها هو بعد أن وضع دينه فى الخشبة التى ألقاها فى الماء ، يجد مركباً يركبه حتى يصل إلى الدائن ، ويعتذر إليه عن تأخره عن الأجل المحدد للسداد بسبب عدم وجود مركب يركبه فى الفترة الماضية ، ولكن الدائن المؤمن الذى رضى بالله كفيلا وشهيدا لا يستخفه الطمع ، ولا تغريه الدنيا ، فيحاول أن يستفسر من صاحبه :" هل كنت بعثت إلىّ شيئاً ؟ "

ولكن المدين المؤمن الحريص على سداد دينه ، لا يجيب مباشرة بما فعله من تجويف للخشبة ووضع المال فيها وإلقائها فى المال ، ولكنه يجيب بما يشبه الاعتذار:" أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئتُ فيه "

وهنا تتجلى روعة الإيمان الموصول بالله والخوف منه ، فيقول له الدائن :" فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً ".

و هكذا تنحلّ عقدة القصة وفقا لمفهوم إيمانى يميّز طرفى القصة ، ويحرص كل منهما على الوفاء بحق صاحبه : دَيناً أو اعترافاً بسداده .

إن الشرائع الإلهية حريصة على توفير العلاقات الإنسانية الطيبة فى المجتمعات وأساس هذه العلاقات هو المعاملة الطيبة ،وهذا من أبرز معطيات القصة ؛ فالدين المعاملة كما علمنا الإسلام الحنيف والمعاملة الطيبة تقضى من القادر مساعدة العاجز ، والقوى مساعدة الضعيف ، والغنى مساعدة الفقير .

• **هذا الالتزام الخلقى** الإنسانى تجاه الآخرين ممن يحتاجون إلى العون والمساندة يمّتد إلى الالتزام والوفاء بالعقود والاتفاقات والمواثيق ، وهو ما رأيناه بين المدين والدائن ، فالمدين حريص على الوفاء بالتسديد فى الأجل المحدد ، والدائن لم يستغل فرصة وصول الخشبة و إخفاء الحقيقة عن صاحبه الذى أبدى استعداداً لتسديد الدين مرّة أخرى لعلمه أن الطريقة الأولى للتسديد لم تكن طبيعية ولم تكن مؤكدة .. قارن هذا بما يحدث الآن من فساد بعض الذمم والنفوس ، وانظر إلى عدد القضايا المرفوعة فى المحاكم و أقسام الشرطة بسبب الشيكات التى لم تسدد و إيصالات الأمانة التى لم تدفع و الوعود التى لم تنفذ ..

ولنا أن نتخيل أثر ذلك على السمعة و الثقة و حركة التعامل بين الناس .

• **إن الأمانة فى التعامل هى** أساس التجارة والعلاقات الإنسانية الاجتماعية ولذلكم نجد أن الالتزام الدينى مما يجعل الناس يرددون دائما : الدين المعاملة .

و **يعطينا الحديث ملمحاً أساسيّاً من** ملامح التعامل بين الناس وهو ضرورة الإشهاد والتوثيق فى معاملاتنا مع الالتزام الدينى و الخلقى .. فعند المداينة أو المبايعة لابد من الكتابة والتوقيع و الإشهاد و التوثيق ، حتى لا تضييع الحقوق عند تغير الظروف و تحوّل النفوس .

قال تعالى فى آية المداينة وهى من أطول آيات القرآن الكريم :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ....."(البقرة :٢٨٢)

و قال تعالى :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ....."(المائدة :١)

و هـذه الآيـات و غيرها تدلنا على ضرورة تسجيل المعاملات و توثيقها بالشهادة مع الوفاء بها ، حتى لا يحدث خلل فى التعامل بين الناس .

و يجب أن يتأكد المسلم ، عميق الإيمان ووثيق الصلة بالله ، من أن الله شهيد على كل التعاملات و السلوكيات و النوايا ، وهو أيضاً الضامن و الكفيل الذى لا يضيع الحقوق ، وقدمت لنا القصة نموذجاً حيّاً ، و مثالاً حاضراً ، عندما وصلت الخشبة إلى صاحب الدين فتسلمه ، وهذا يؤدى بنا إلى معطى آخر من معطيات القصة وهو أن حبل الله موصول إذا انقطعت الأسباب بين الناس .

بعض الناس يظنّون أنهم فقدوا الأمل أو فقدوا الأسباب بما يريدون ، ولكن الله سبحانه – وهو المهيمن القادر القوى – يصل حباله بمن يؤمن به ، ولا يضيعه .

إن القصـة الـتى وردت فى الحديث الشريف تقدم لنا صورة مضيئة للتعامل الإنسانى القائم على الالتزام ، و مراقبة الله ، و الخوف منه ، ورفض الانحراف مهما كانت المغريات و المخاوف .

و صدق الله إذ يقول : "....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا "(الطلاق :٢)

"....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا "(الطلاق :٤)

**** ****

جبريل عليه السلام يعلّم الصحابة

عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال :

بينما نحن جلوس عند رسول الله – صلى الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ،وقال :

- يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- الإسلام : " أن تشهد أن لا إله إلا الله ، و أن محمداً رسول الله ، و تقيم الصلاة و تؤتى الزكاة ، و تصوم رمضان ، و تحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ".

قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله و يصدقه :.

قال : فأخبرنى عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله ، و ملائكته ، و كتبه ، ورسله ، و اليوم الآخر ، و تؤمن بالقدر خيره و شرّه .

قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان ..

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرنى عن الساعة ..

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرنى عن أماراتها .

قال : أن تلد الأمة رَبَّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاءَ الشاءِ يتطاولون فى البنيان .

ثم انطلق فلبثت مليّاً . ثم قال :

- يا عمر! أتدرى من السائل ؟

قلت : الله و رسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ".

أخرجه : مسلم و أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى و البيهقى .

....

أول عناصر القصة هنا هو الحدث أو الموضوع ، و يدور حول سائل يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدة أمور ، هى الإسلام و الإيمان و الإحسان وعلامات الساعة و يبدأ الحدث بوصول السائل و إلقائه الأسئلة و تصديقه بإجاباتها التى يقدمها له الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله " تشهد أن لا إله إلا الله ....الخ " أى تقرّ و تعترف بوحدانية الله – جل و علا ورسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – و بقية أركان الإسلام ، و " تقيم الصلاة " أي تواظب على إقامتها كاملة الشروط و الأركان ، ووتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان وتحج البيت : " إن استطعت إليه سبيلاً " ، و المقصود بالاستطاعة هنا : القدرة على السفر و امتلاك متطلباته من طعام و شراب و مصروفات و قوة تحمل لمشاقه وصعوباته .ويصدق السائل على ذلك فيتعجب الصحابة من ذلك ، فيسأله عن الإيمان ؛ فيجيبه : تؤمن بالله : أى تؤمن بوحدانيته – لا شريك له – و تعبده وحده دون سواه . وملائكته وكتبه : أى الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل و القرآن ؛ ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ؛ أى ما قضى الله به على عباده و قدر حدوثه لهم . فيصدقه السائل . ويسأله عن الإحسان فيجيبه . والإحسان يقصد به إتقان العبادة و كمالها . " كأنك تراه " يقصد به أقصى درجات الراقبة فلا تفعل إلا ما يحّب وتنتهى عما لا يحّب .

ويسأله عن الساعة فيجيبه بأن المسئول وهو النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يعلم عنها إلا ما يعلمه السائل ، فيطلب منه معرفة علاماتها أو أماراتها أو الإشارات الدالة عليها، فيخبره أن تلد الأمة ربتها ، والأمة : أى المرأة الرقيق المملوكة لغيرها وفقا للنظام الدولى الذى كان سائداً قبل نزول الوحى . ويقصد بقوله "ربتها" ، أى سيّدتها ؛ كناية عن انقلاب الأوضاع الاجتماعية ، ومن علامات الساعة أيضا تطاول الرعاء في البنيان..ونعلم من الحدث بعد أن لبث عمر مليا وانتظر بعض الوقت عقب انصراف السائل أنه كان جبريل عليه السلام .

وثانى هذه العناصر ، هو الشخصية القصصية ، وتبدو لنا منذ بداية الحديث حتى قرب تنهايته شخصية غير معروفة ، أو غريبة على المكان و أهله ، ولكن القصة تقدمه لنا فى صورة رجل شديد بياض الثوب ، مما يدل على علوّ مكانته و أصالة منبته ، ثم إن له من صفاته الجسدية شدة سواد شعره ؛ وهناك أيضا صفات معنوية له : فهو غير مسافر ولا يعرفه أحد . والعادة أن يكون غير معروف لدى الناس ، قادماً من سفر ، وتبدو عليه علامات المسافر من رهق و تعب و غير ذلك ، ولكن شخصيتنا مع وجودها الغريب أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضوان الله عليهم ، لا تبدو عليهم علائم السفر بل ترتدى ثوباً شديد البياض ، وهو ما يشوق إلى متابعتها والتطلع إلى معرفة من هى ؟

و ثالث عناصر القصة هو الحوار ، و طبيعى أن تعتمد القصة هنا على الحوار فهناك سائل يسأل ، و مجيب لابد أن يجيب ، ومن خلال السؤال و الإجابة تنمو المعلومات المراد إيصالها للسامعين ، فضلاً عن السائل نفسه ، و يدور الحوار الذى يكشف عن أهمية المتحاورين و أهمية الموضوع حول أركان الدين و مقوّماته ، بحيث يكون المسلم على أحسن صورة فى إيمانه و معتقده و اتصاله بالخالق المعبود جل و علا .

ورابع العناصر البارزة فى القصة هو ما يتعلق بالذروة والختام أوالنتيجة فقد جاء الرجل ليسأل ثم يسأل ثم يسأل . دون أن يعرفه الصحابة ، و بعد أن انصرف الرجل ؛ مكث و كأنه ينتظر ليعرف من هو هذا الرجل الغريب الذى لا تبدو عليه علامات السفر ، فإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يفسّر الأمر لعمر ، ويخبره أنه الذى كان يسأله هو جبريل عليه السلام ، جاء على هيئة رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ليعلّم الصحابة رضوان الله عليهم أمور الدين عن طريق الحوار مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

تعطينا هذه القصة أكثر من معطى ، فهى تفرق بين مستويات عديدة للعقيدة فالإسلام مرحلة من مراحل العقيدة تليها مرحلة الإيمان تليها مرحلة الإحسان ، الإسلام أولى درجات الدين بإقامة أركانه الخمسة : الشهادتين و الصلاة و الصيام والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

و الإيمان إقامة التوحيد عن تسليم قلبى خالص مع الإيمان بالله و ملائكته و كتبه ورسله و اليوم الآخر ، و القدر خيره و شرّه .

قال تعالى :

"قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ....."(الحجرات :١٤)

و فى هذه الآية الكريمة بيان للفارق بين الإسلام و الإيمان . الإسلام تظهره أعمال الجوارح بالقول و السلوك ، أما الإيمان فهو الاطمئنان القلبى و الاستسلام بالطاعة لله ورسوله . وقد وردت معظم أركان الإيمان فى قوله تعالى :

"ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ....."(البقرة :٢٨٥)

و تعطينا القصة إجابة ما عن موعد الساعة أو القيامة ، فمعرفة هذا اليوم و تحديده سرّ من أسرار الحق سبحانه و تعالى اختص به نفسه دون خلقه ، ولكن هناك علامات من علاماته تشير إليه و إلى اقترابه .

قال تعالى :

"يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ..."(الأحزاب :٦٣)

و قال تعالى : "إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ....."(فصلت ٤٧)

و قال تعالى : "....وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا "(الأحزاب ٦٣)

ومع ذلك فإن القصة تشير إلى أن للساعة علائم و مقدمات تدل على اقترابها ، منها ما ورد فى الحديث الشريف أو القصة النبوية كأن تلد الأمة ربتها ، أى تصير الأمة المسترقّة سيدة صاحبتها التى اشترتها و أنفقت عليها ، و هذا كناية عن انقلاب المواضعات الاجتماعية . و فقدان الاحترام المتبادل ، و حلول الاستعلاء المرذول بدلاً من التواضع المحمود .

قال تعالى على لسان لقمان عليه السلام لابنه يوصيه :

"وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ "(لقمان : ١٨-١٩)

ومن أمارات الساعة أيضاً أن ترى الحفاة العراة العالةَ رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . و" الرعاء" يقصد به الرعيان الذين يرعون الإبل و الماشية ونحوها و قوله الشاء : يقصد به الشياه . وقوله " يتطاولون فى البنيان " يقصد به المفاخرة و المباهاة ، وكلمة " التطاول" هنا ، فيها معنى الافتعال و الادعاء، لذا فالتطاول فى البنيان ، يشير إلى ما يحاوله بعض الناس من ارتقاء مواضع ليست لهم ، و ادعاء درجات أو مناصب لا يستحقونها ، أو مكانة لا يستحقونها –

بحكم تواضع قدراتهم ومواهبهم وإمكاناتهم ، ولا يظنن أحد أن الإسلام يقلّل من قيمة أحد ، أو يعبّر عن عنصرية تجاه بعض الأفراد في المجتمع ، أو يحتقر بعض المهن والأعمال ، فهو الذى جعل الناس سواسية كأسنان المشط ، والمفاضلة بينهم تقوم على أساس التقوى ، وهو يشيد بكل عمل شريف يأتى من الكّد والكدح والعرق، وكان نبى الله داود يأكل من عمل يده .

و القصة التى بين أيدينا تجعل انقلاب الأوضاع دليلاً على قيام الساعة، لأن الأمور صارت غير طبيعية ، حيث ارتقى الأدنى مكانة الأعلى دون حق، و نزل الأعلى إلى موضع الأدنى دون ضرورة أو مسوّغ ..وهكذا تقوم الساعة .

ومن معطيات القصة إرساء منهج إسلامى تربوى معرفى سبق النظريات المعاصرة التى تكثر من الرطانة حول ما يسمى حق السؤال أو المساءلة .. ففى القصة سؤال يؤدى إلى جواب .

السؤال فى الإسلام حق وواجب ووسيلة معرفية تربوية ، والإجابة فريضة على كل من يعرف و يقدر على تقديمها ، وقد وضعها الإسلام فى إطار محترم وراق ، و نعى على من يخالفها ، لأنه يخالف المنطق و الأصول المعرفية .

"وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ "(الحج :٨)

و قال تعالى : "وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ...."(العنكبوت :٤٦)

و قال تعالى : "وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...."(النحل :١٢٥)

ولا ريب أن منهج المعرفة فى الإسلام له أبعاد كثيرة يصعب الحديث عنها فى هذا الحيز الضيق ، و لكنه فى النهاية ، يجعل المسلم يعيش عمره كله طالباً للعلم، محبّاً للمعرفة باحثاً عنها فى كل المكان.

وفى القصـــة صورة مضيئة للعلاقة بين المعلم والمتعلم ، هى علاقة الإخلاص والبذل والعطاء من جانب الأول . والتواضع والجدية والاحترام من جانب الآخر.

إن جبريل عليه السلام يقترب من النبى ، صلى الله عليه وسلم – لا يبخل بإجابة ولكنه يجيب ويوضح ويشرح ، لأن هذه مهمته بوصفه الداعية الأول الذى يقدم القدوة والنموذج للأجيال التالية من الدعاة والمعلمين إلى يوم الدين ...ثم انظر إلى تواضع المصطفى صلى الله عليه وسلم حين يخاطب عمر – رضى الله عنه – وهو يُعلِمه بشخصية الرجل الذى جاء يسأل :

" فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "..لم يقل أنا الذى يعلمكم ، ولكنه نسب العلم إلى جبريل الذى قام بدور السائل ، ومع ذلك فهو " المعلم " الذى يقدم نموذجاً هادئاً وبسيطاً ومثمراً لكيفية التعلم بعيداً عن الأمر والنهى المصحوبين بالزعيق والصياح والصراخ .. إنها مدرسة النبوة فى تألقها الساطع الوديع الذى يجمع القلوب ويؤلف الأفئدة ويشرح الصدور ويحيى النفوس ...

**** ****

القرد و الخمر

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن رجلاً حمل معه خمراً فى سفينة يبيعُهُ ، و معه قرد – قال :

فكان الرجل إذا باع الخمر شابه بالماء ، ثم باعه – قال :

فأخذ القرد الكيس ، فصعد به فوق الدقل . قال :

فجعل يطرح ديناراً فى البحر ، و ديناراً فى السفينة حتى قسمه .

وفى رواية أخرى :إن رجلاً كان يبيع الخمر فى سفينة ، و معه فى السفينة قرد – فكان يشوب الخمر بالماء . قال :فأخذ القرد الكيس ، ثم صعد به فوق الدور ، وفتح الكيس ، فجعل يأخذُ ديناراً فيلقيه فى السفينة ، و ديناراً فى البحر حتى جعله نصفين "

(أخرجه أحمد والبيهقي)

....

تجتمع فى قصة هذا الحديث عناصر القصة المعروفة . فالحدث هنا هو بيع الخمر المغشوش مخالفة لما استقر عليه المجتمع من الأمانة فى البيع و الشراء ، و ثقة المشترى فى البائع الذى يفترض أن يكون أميناً .

و المكان هنا هو السفينة و البحر . و السفينة تمثل المجتمع بحكم ما تضمه من مسافرين و بحارة على ظهرها يشيرون إلى أفراد المجتمع الذين تتفاوت وظائفهم و مهنهم و أعمالهم ، واحتياج بعضهم إلى بعض ، و بخاصة فى البيع و الشراء ، ومنهم بائع الخمر الذى يسعى إلى الكسب ولو كان بالغش أو الخروج على قواعد المجتمع .

و سوف نلاحظ أن الزمان جاء مجهولاً فى القصة على العكس من المكان ولعله يشير هنا إلى فترة لم تكن فيها الخمر محرّمة ، و كان الناس يتداولونها مثل

بقية السلع وهو ما يشير من ناحية أخرى إلى تحريم الغش فى الأزمنة كافة ، والسلع كافة .

أما عنصر الشخصية فى القصة فيضم شخصية البائع الغشاش والقرد المرافق له وكلاهما يكمل الآخر من حيث إن البائع يخرج على سياق المواضعات الاجتماعية فى البيع والشراء بغش بضاعته ، والقرد يستنكر هذا الخروج و يرفضه .

ثم لنا أن نتأمل موقف القرد الذى يمثل الطبيعة الحيوانية و الفطرة التلقائية فى التصدى لخروج الإنسان عن المواضعات الاجتماعية أو ما يمكن تسميته بالفطرة الإنسانية و هذا التصدى هو ما يفسّر بذروة العقدة القصصية فى الحديث ، حيث تنحل بعدئذ بقيام القرد بالصعود **إلى الدقل** : وهو الصارى الذى يرفع فوقه شراع السفينة ، وهو أعلى جزء فيها حتى لا يتمكن منه صاحب الخمر ، و يأخذ فى تقسيم ما فى كيسه من مال ، **فيطرح** : أي يرمى مافي الكيس ، أى إن القرد أخذ يرمى ديناراً من ثمن الخمر فى الماء ، و يرمى آخر فى السفينة حتى صار المال قسمين أو نصفين ، إشارة إلى أن النصف الذى ألقاه فى الماء يعادل الجزء المغشوش من الخمر .لأن الرجل كان يشوب الخمر بالماء ، **وشاب يشوب** : أي خلط يخلط ، أى خلط الرجل الخمر بالماء فلم تعد صافية و صارت مغشوشة .. الماء طبيعي و الخمر مغشوشة ، وفى الحالين نشهد المفارقة بين موقف الإنسان الذى ينحرف بطبيعته والحيوان الذى يصحح له هذا الانحراف ، فى بيع الخمر أو شربها على السواء .

لا ريب أن الخمر أم الخبائث ، وهى من الموبقات المهلكات على المستويين الفردى والإجتماعى و قد تدرج القرآن الكريم فى تحريمها . فقد كانت شائعة فى الجاهلية ، وكان ينتج عن تعاطيها شرّ كثير ، قال تعالى :

"يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ...."(البقرة :٢١٩)

و قال تعالى : "إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ "(المائدة-٩١)

و قد تمنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه – أن يتم تحريم الخمر تماماً لما تسببه من شرّ و أذى و متاعب و خسائر للأفراد والناس جميعاً ، فنزل قوله تعالى: "...إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة :٩٠)

و نلاحظ ارتباط الخمر بالميسر أو ما يعرف بالقمار ، و عبر عنها القرآن الكريم بالرجس ، وكان التحريم بالاجتناب ، أى البعد تماماً ، و لذا كان الحديث الشريف منبها إلى لعن الخمر وشاربها و بائعها و شاريها وكل من يشارك فى تقديمها أو صنعها أو تسهيل أمرها .

و فى سياق القصة نجد إشارة إلى خلّة مذمومة وهى " الغش " الذى يتحقق غالباً فى البيع و الشراء . فهو صفة ذميمة فى كل الأحوال ، وقد تبرأ الرسول صلى الله عليه وسلم من الغش و الغشاشين ، فقال : " من غش فليس منا " ، وهذه البراءة تشير إلى بشاعة جريمة الغش فى كل الظروف و المناسبات ، و المسلم الحق هو الذى يقول الحق و يقول الصدق و يخشى الله فى السر و العلن .

تقدم لنا القصة موقفاً دالاً من الحيوان الذى هو القرد ، فى رفضه لانحراف الطبيعة البشرية . فالفطرة السوّية فى الإنسان أو الحيوان أو الطير الذى فطرها الله عليها ترفض الانحراف و مخالفة الفطرة . وهو ما رأيناه فى تصرف القرد حين رأى صاحبه ينحرف عن فطرته و يخرج عليها ، فيقوم القرد بتصحيح هذا الانحراف و إعادة صاحبه إلى سواء الصراط .

ومن مجمل القصة يتبين لنا أن التشريع الإلهى فيه خير كثير للعباد والبلاد. فالخمر لا تنتج إلا الشرّ و الأذى ، وعند تناولها يغيب العقل ، و يضيع الرشد، و يضل الإنسان و عندئذ يرتكب من الجرائم و الموبقات ، ما يؤدّى به إلى طريق الظلام و الضياع و الجريمة فيسىء إلى نفسه و إلى مجتمعه .

و تحريم الخمر ليس قيداً على الإنسان أو حرمانا له من متع الحياة ، بقدر ما هو صيانة لنفسه و نفوس المجتمع .. ولسنا الآن فى مجال تعديد صور الخسارة بالنسبة للإنسان فى نفسه و بدنه و صحته و ماله و عرضه و دينه ، و بالنسبة للمجتمع فى أفراده وثرواته و قيمه و أخلاقه وأمنه و حاضره و مستقبله ، ولكننا نشير إلى أن الله - وهو أعلم بمصلحة العباد - وضع لنا تشريعاً متفوّقاً فيه فائدتنا وصلاحنا ، و عزّنا و كرامتنا و خيرنا ومجدنا و دنيا طيبة تمهّد لأخرى طيبة فيها خمر طيبة بل فيها أنهار من الخمر.

"....وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ....."(محمد :١٥)

و هذه الخمر لا تذهب العقل ولا تزرى بصاحبها "لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ "(الصافات :٤٧)

أليس فى تشريعنا الإلهّى خير كثير ؟

**** ****

الصبر على البلاء

عن خباب بن الأرت – رضى الله عنه – قال :

" شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو متوسد برده فى ظل الكعبة فقلنا :- ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، و يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه وما يصدّه ذلك عن دينه .

والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "

"أخرجه البخارى ، و أبو داود"

....

يأتى الحدث أو موضوع القصة من خلال إطارين ، قصة كبرى ، وهى شكوى الصحابة مما يعانونه ، و يسألون الرسول – صلى الله عليه وسلم – النصرة والدعاء .

ثم قصة صغرى وهى ما كان يجرى لبعض المؤمنين من تعذيب يصل إلى حدّ النشر بالمنشار والتمشيط بأمشاط الحديد .

القصة الكبرى إطار أكبر لما يعانيه المؤمنون فى كل زمان و مكان من أجل إيمانهم وعقيدتهم وضرورة أن يتحملوا و يصبروا حتى يأتيهم نصر الله و يتم دينه .

و القصة الصغرى نموذج لما كان يحدث قبل الدعوة الإسلامية ، فقد كان المؤمنون يتعرضون لأهوال تذهب بحياتهم بعد تعذيب بشع وحشى ، ولكنهم ظلوا على مبادئهم ومعتقداتهم لا يتغيرون . وهو ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون في صدر الدعوة . لقد ذهبوا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو متوسد برده في الكعبة ، أى جعل البردة تحت رأسه بمنابة وسادة ، و البردة هى الشملة المخططة .

وقيل إنها كساء أسود مربع فيه اصفرار تلبسه الأعراب ، جمعها بُرُد ، وطلبوا منه أن يستنصر لهم أي يطلب النصرة ويدعو لهم الله بالانتصار على من يعذبونهم ويضطهدونهم.. فيذكرهم بالسابقين ممن تحملوا الاضطهاد والعذاب ، وأن ذلك ما كان يصدهم أى ما يمنعهم العذاب بالمنشار و أمشاط الحديد عن دينهم وعقيدتهم .

ثم كانت هنالك بشارة من الرسول – صلى الله عليه وسلم – مصحوبة بالقسم المؤكد عن حتمية انتصار الإسلام وسيادة الأمن فى أرجاء الجزيرة العربية . " والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، و الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "ويقصد بقوله : " هذا الأمر" الإسلام ، أى ليتمّن الله الإسلام .

والشخصية فى القصة شخصية عامة لا نلمح إلا جانباً من ملامحها على أساس أن الشخصية معروفة سلفاً ، فهناك شخصية الصحابى الجليل " **خباب بن الأرت** " رضى الله عنه – وهو واحد من الصحابة الذين سألوا الرسول – صلى الله عليه وسلم النصرة و الدعاء .. ثم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم – نفسه الذى يتوجه إليه الصحابة بالطلب أو الرجاء ، و نراه فى تواضعه وهو يتوسد بردته ويضعها تحت رأسه بوصفها وسادة ، وهو يجيب على أصحابه داعيا إياهم إلى الصبر على البلاء .. وهناك شخصيات مبهمة لرجال ينشرون بالمناشير و يمشطون بأمشاط الحديد التى تفصل اللحم عن العظم ، ومع ذلك يصبرون على البلاء ولا تتزعزع ثقتهم فى الله .. ولا إيمانهم به .

إن هذه الشخصيات المبهمة لأولئك الرجال . هى شخصيات المعذبين فى العصور كافة والأماكن المختلفة .

و **يظهر عنصر المكان** هنا مشيراً إلى أهميته و قدسيته أو إلى اتساعه و امتداده ، فالكعبة التى ينام الرسول – صلى الله عليه وسلم – بجوارها تمثل رمزا

وبيتاً ولها قيمتها و مكانتها فى الإسلام منذ بناها إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام حتى عصر البعثة المحمدية الخاتمة .

كما أنها تشير إلى ارتباط الحدث القصصى وهو المعاناة فى سبيل العقيدة برمز العقيدة وهو الكعبة . وفى ذكر المسافة بين صنعاء و حضرموت إشارة أخرى إلى اتساع المكان و امتداده . فانتصار الإسلام ينشر الأمن فى كل الأرجاء ، وإذا عرفنا أن صنعاء و حضرموت من أبعد الأماكن فى ذلك الوقت عن مركز الدعوة وهو الكعبة أو مكة المكرمة ؛ فإن بشارة الرسول - صلى الله عليه وسلم - صدقت ، ووصل الإسلام إلى أبعد الأماكن بما فيها صنعاء و حضرموت ، ولكل منهما حضوره التاريخى و الحضارى فصنعاء رمز الحكمة اليمانية ، وحضرموت هى منبع الدعاة الذين نقلوا الإسلام إلى أبعد مكان على ظهر الأرض كما نرى فى نشرهم له بإندونيسيا وما حولها من الجزر و الأماكن .

أما ختام القصة ، فهو البشارة النبوية بانتصار الإسلام ، وقد جاءت مؤكدة بالقسم واللام ونون التوكيد الثقيلة ، وقد تحققت بفضل الله وانتصر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

تكشف القصة فى أول معطياتها عن جانب الضعف الإنسانى أو البشرى فى مقاومته للشرّ . وتعرّض الإنسان لهزات نفسية عاتية حين تكون قوة أعداء الدين أكبر من قدرته على التحمّل و المقاومة ، وحينئذ يأتى المثال على الصمود والصبر من خلال ما تعرّض له السابقون من المؤمنين فى الأمم الأخرى .. حيث كان الواحد منهم يوضع فى حفرة تستوعب معظم جسده ثم يؤتى بمنشار فينشر من رأسه فيكون نصفين ، ثم يمشط بأمشاط الحديد لتفصل لحمه عن عظمه ، ولكن ذلك كله لا يزحزحه قيد أنمله عن إيمانه و عقيدته .

وقد وردت قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج لتقدم نموذجاً حيّاً للصبر على البلاء ".

"قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ " (البروج ٤-٨)

كما وردت آيات كثيرة تحث على الصبر و توضح طبيعته و كيفيته و ثوابه ، منها قوله تعالى :"فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...."(الأحقاف ٣٥)

و قوله تعالى :"...وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ "(النحل :٩٦)

و قوله تعالى :"فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا "(المعارج :٥-٧)

و قوله تعالى :

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ....."(ال عمران : ٢٠٠)

و قوله تعالى :"....قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ "(البقرة :٢٥٠)

و تعطينا القصة نموذجاً للتواضع الإنسانى فى أنضج صوره ، وهو تواضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – فمع أنه رسول مصطفى من عند الله ، يخصه بالوحى والإلهام وهو خاتم الرسل و الأنبياء ، فإنه لا يجد غضاضة أن يصنع من برده وساداً أو وسادة يضعها تحت رأسه وهو ينام بجوار الكعبة فى بساطة متناهية ، وهو الذى علمنا أن " من تواضع لله رفعه " ، فأين هذا من استعلاء بعض الناس فى زمننا استعلاء مرذولاً ، و تكبرّهم بغير حق ، و خيلائهم التى يتصورون أنها تجعلهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، ونسوا أو تناسوا أن لقمان عليه السلام يوصى ابنه بالتواضع و عدم التكبّر.

"وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ "(لقمان :١٨)

و هذا إدراك من لقمان عليه السلام لقيمة التواضع و البساطة فى حياة الناس .

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقدم لنا القدوة الحسنة فى مجال التواضع والبساطة و الاقتراب من الناس ، و الصبر على البلاء ،وهو الذى يستعين بالتاريخ أو المثال التاريخى ليقنع أصحابه بضرورة الصبر ، وعدم استعجال النتائج، لأن الاستعجال يفسد المقدمات و يؤدى إلى نتائج غير طيبة ، فالصبر الجميل هو الطريق الحقيقى للحصاد المثمر و النتائج الباهرة .

و عملاً بإشاعة الأمل و البشارة فى النفوس ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم وقد بعثهُ الله مبشراً و نذيراً ، يبشر قومه الذين يصبرون على البلاء ولا يستعجلون النتائج قبل موعدها ، بانتصار الإسلام والتمكين له فى الأرض ، وتجاوز كيد الأعداء و تخطيط المتربّصين " و الله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه .." .

وقد تحققت البشارة و صار الأمل حقيقة ، و أتم الله نوره ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، و نزل قوله تعالى :

"....الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...."(المائدة :٣)

و هكذا فإن المؤمن صاحب العقيدة لابد أن يتحّمل فى سبيل عقيدته وإيمانه ويصبر على البلاء صبراً جميلاً ، وليكن له فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قدوة حسنة ، وفى السابقين من أهل العقائد الذين امتحنوا في إيمانهم نماذج للصبر على البلاء وعدم الاستعجال فى قطف الثمار.. وليكن أملهم فى الله كبيراً ، فهو القادر على تحقيق غاياتهم ، و نصرهم على أعدائهم .

الابتلاء و الرحمة

عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم :

- يارسول الله ، ما أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟

- قال :

- لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذْ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل فلم يُجبنى ، فانطلقت و أنا مهموم على وجهى، فلما كنت بموضع كذا رفعت رأسى فإذا أنا قد أظلتنى سحابة ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال :

- إن الله عزوّجل قد سمع قول قومك ، وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

- فنادانى ملك الجبال فسلّم علىّ ، ثم قال :

- يا محمد ، إن الله عزوّجل قد سمع قول قومك ، و أنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك بأمرك فيماشئت ، إن شئت أُطبق عليهم الأخشبين .

- فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

- أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا شريك له "

" أخرجه البخارى و مسلم و ابن حبان و ابن أبى الدنيا "

يقوم الحدث فى القصة على المفاضلة بين يوم أحد الذى كان شديداً أو أشد الأيام فى حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – و بين يوم آخر ذكره لعائشة و كان أشدّ من يوم أحد ، وهو دعوته ابن عبد ياليل الذين رفضوا الاستجابة ..

اليوم الأول وهو يوم أحد انهزم فيه المسلمون أمام قريش بعد أن أوشكوا على قطف ثمار نصر كاسح ، ولكن مخالفة المقاتلين للأوامر شجعت المشركين على الكرّ على المسلمين و إعمال السيف فيهم وهم مشغولون بجمع الغنائم ، لولا صمود الرسول - صلى الله عليه وسلم - و مجموعة من الصحابة ، و ثباتهم فى وجه الهجوم الذى أوقع بالمسلمين خسائر كبيرة و حوّل انتصارهم إلى هزيمة .

أما اليوم الآخر فهو اليوم الذى دعا فيه النبى ابن عبد ياليل إلى الدخول فى الإسلام ، ولكنهم لم يستجيبوا وكان يأمل فيهم كثيراً ، ولكنه عاد كاسفاً حزيناً يحمل من الهموم ما جعله يمضى على وجهه فى الطريق على هيئته هذه . وهو **معنى قوله** : " عرضت نفسى على ابن عبديا ليل فلم يجبنى " ، أى عرضت الإسلام على قوم عبد ياليل ، فلم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لى . ويفسر نتيجة ذلك بقوله "فانطلقت على وجهى " ، أى سرت فى الطريق و أنا ملىء بالهموم و الأحزان بسبب عدم إسلامهم .

و **شخصيات القصة** معروفة لقارىء الحديث أو سامعه ، فها هى عائشة زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم ، و ابنة صديقه الأول أبى بكر - رضى الله عنه - ثم نرى شخصية النبى - صلى الله عليه وسلم - يرد على كلامها و يصف حالته و ابن عبد ياليل لم يستجيبوا له ، وشخصية جبريل عليه السلام التى ظهرت فى السحابة لتشدّ من أزره وتبلغه بحفظ الله له ورعايته الدائمة ، ثم شخصية ملك الجبال ، الذى ينفذ أوامر ربه كى ينفذ انتقامه من المشركين لو أرادا النبى - صلى الله عليه وسلم .

و **نلاحظ أن** الحوار عنصر مهم من عناصر القصة ، لأنه يكشف عما يشغل الشخصية القصصية أو يبين وظيفتها ، فهو يكشف عما تراه عائشة رضى الله عنها من أن يوم أحد أشد الأيام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يجيبها أن

يوماً آخر كان أشد من يوم أحد حيث كان يودّ أن يسلم ابن عبد ياليل ولكنهم حدلوه ورفضوا الاستجابة له ثم نجد جبريل عليه السلام و ملك الجبال يمتثلان للمهمة المكلّف بها كل منهما ويبلغان الرسول – صلى الله عليه وسلم بما كلفّا به وهو الانتقام لو أراد .

و بناء القصة يقوم على الكشف عن شدّة وقع يوم صعب على النبى الكريم .

و كانت عائشة تظن أنه يوم أحد الذى انهزم فيه المسلمون ، و تحمّل النبى مع الصحابة شدّته و تأثيره ، ولكننا نجد أن يوم ابن عبد ياليل كان أشدّ ، فقد كانت قسوته على النبى صلى الله عليه وسلم محرّكاً لجبريل و ملك الجبال ليقتصاً من هؤلاء القوم " **إن شئت أطبق عليهم الأخشبين** " **والأخشبان** : جبلان فى مكة أولهما أبو قبيس ، والآخر ما يقابله .

والمعنى إن أردت الانتقام فإنه يمكن إهلاكهم و إفنائهم تحت الجبلين العظيمين اللذين إذا اجتمعا سحقا من تحتهما ، و **أطبقتهما** : جمعتهما فلا ينجو منهم أحد .

وكأن قارىء الحديث أو المستمع إليه يتصّور أن تكون هذه هى النتيجة الطبيعية لقوم عبدياليل ، ولكن ختام القصة يأتى مخالفا لذلك ، كاشفاً عن خُلق كريم للرسول صلى الله عليه وسلم – يختص به وحده و يتميز ، وهو يتمثل فى عدم رغبته فى الانتقام من القوم الذى خذلوه وردّوه خائباً ، ولكنه يتمنى أن يخرج الله من بين ظهرانيهم من يعبد الله لا شريك له .. وهو ما قصده **بالإشارة إلى الأصلاب** : جمع صُلب ، وهو الظهر .

ولا ريب أن هذه الخاتمة تتسق مع منهج الإسلام فى الدعوة والأمل ، فمهما لقى الدعاة من المتاعب و الصدود ينبغى عليهم أن يكونوا أكثر تسامحا ومودّة و إيماناً بالمستقبل الذى يفتح الله فيه أبواب الأمل و الرحمة أمام الآخرين .

تعطينا القصة النبوية صورة لما يعانيه الأنبياء و الرسل فى صراعهم مع الدنيويين الذين يبتعدون عن الإيمان و التوحيد . فقد كان يوم أحد شديد الوقع والقسوة على المسلمين و قائدهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر الكاسح على المشركين ، ولكنهم خالفوا أوامر قائدهم وانشغلوا بجمع الغنائم فكرّ عليهم المشركون و هزموهم و أنزلوا بهم خسائر فادحة ، ولكن رحمة الله سبحانه تجلّت فى تثبيت النبى – صلى الله عليه وسلم – ومجموعة من الصحابة معه ، مما شجع المسلمين الذين انفرط عقدهم على التجمع حولهم ، والصمود فى وجه المشركين ، و حفظ بيضة الإسلام التى كادت تنسحق تماماً وينتهى ذكرها .

إن ابتلاء الأنبياء مسألة أساسية ، و ابتلاء المؤمنين أيضاً ، لأنه للتمحيص و الاختبار و معرفة الإيمان الصادق من غيره .

قال تعالى : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ "(محمد ٣١)

و قال تعالى : "لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ "(آل عمران :١٨٦)

و يشير الحديث إلى أن ابتلاء الأنبياء و الرسل ، و المؤمنين أيضاً ، تصحبه رحمة الله سبحانه ، و دعمه الإلهى حين تشتد المحن و تصل إلى حد الذروة ، فقد رأينا جبريل وملك الجبال يقدمان دعمهما للنبى – صلى الله عليه وسلم – و يثبتان قلبه تعويضاً عما لحق به من حزن و انكسار لدى قوم عبد ياليل .

ولا ريب أن القصة النبوية تكشف لنا عن منهج مهم لدى الأنبياء و الرسل والدعاة وهو ضرورة الصبر أمام الشدائد و المحن ، فلولا صبر النبى صلى الله عليه

وسلم – يوم أحد مع بعض أصحابه لا نسحق المسلمون ولما تدمت لهم قائمة ، ولولا صبره – صلى الله عليه وسلم – يوم عبدياليل ما وجد هذا الدعم الإلهى غير المحدود .

بالطبع فإن البشر يحزنون و يتأثرون نتيجة للإخفاقات أو عدم تحقيق الآمال ولكن الإيمان بالله ووصل حبله دائما . يجنب الدعاة و غيرهم مزالق اليأس والإحباط .

"....إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ "(يوسف :٨٧)

و نرى فى هذا الحديث الشريف صورة لما ينبغى أن يكون عليه الداعية المسلم اقتداء بمنهج الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو الرءوف الرحيم كما وصفه ربه جل و علا "....بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ "(التوبة : ١٢٨)

وهو ليّن الجانب الودود "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ...."(آل عمران:١٥٩)

وهو القائل : " أنا رحمة مهداة " ؛ وهو الذى كان يردّد :

" اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ".

وكان موقفه من أهله الذين آذوه و أخرجوه من مكة وحاربوه فى مهجره ، حين انتصر عليهم و أصبحت رقابهم فى قبضته :

" ما تظنون أنى فاعل بكم . قالو خيراً . أخ كريم و ابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ".

هذا المنهج هو الذى أشارت إليه القصة التى بين أيدينا ، فقد كان الهلاك قريباً منهم بإطباق الأخشبين عليهم ، ولكن الرءوف الرحيم – صلى الله عليه وسلم – يقول :" أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا شريك له "حقا ، إن الغاية الكبرى للإسلام هى الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لا شريك له ..وليست الانتقام أو العقاب . فقد أرسل الله رسوله رحمة للعالمين .

سبق عكاشة

عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" عُرضت علّى الأمم ، فرأيتُ النبّى و معه الرهيط ، والنبى و معه الرَّجلُ والرجلان والنبى ليس معه أحد ، إذ رفع لى سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى :

- هذا موسى و قومه ، و لكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لى :
- هذه أمتك و معهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب "
- ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .
- قال بعضهم : الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- قال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله .
- فخرج عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال :
- ما الذى تخوضون فيه ؟
- فأخبروه ، فقال :
- هم الذين لا يَرْقُون ، ولا يسترقُون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .
- فقام عكاشة بن محصن ، فقال :
- ادع الله أن يجعلنى منهم .
- فقال :أنت منهم .
- ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم .

- فقال : سبقك بها عكاشة "

"أخرجه البخارى و مسلم و أحمد و الترمذى و الدارمى و ابن حبان و البغوى"

....

أول هـذه العناصـر يتبدّى فى السرد أو الحكى أو الحدث الذى يرويه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خلال الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ، أو من خلال رحلة الإسراء والمعراج وهو استعراض أمم السابقين مع الأنبياء ، كل نبى مع أمته ، فهناك أمة صغيرة أقل من عشرة أفراد مع نبيها ، و هناك رجل أو رجلان مع نبّى ،وهو ما عبر عنه النبي - صلّى الله عليه وسلم - بالرهيط ،والـرُّهَيْط : تصغير رَهْط ، وهم الجماعة أقل من العشرة .

وهناك نبّى ليس معه أحد . وهناك سواد عظيم أى جمع عظيم من عامة النـاس مـع نبّى الله موسى عليه السلام ، وقد ظنهم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته ، فإذا به يرى جمعا عظيما فى الأفق ، ويقال له : إن سبعين ألفاً من أمته سيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

و حين يستمع الناس إلى ما قالـه الرسـول - صلى الله عليه وسلم ، فإنهم يحاولون تفسيره بعد أن نهض و دخل منزله ، وهو معنى قولـه : " خـاض النـاس " : ؛ أى تكلّم النـاس فيمـا قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحدثوا عنهم ، و علقوا عليه .

فمنهم من يرى أن السبعين ألفاً من الصحابة ومنهم من يرى أنهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بـالله شيئاً ، ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخرج عليهم ، و يعلم بما دار بينهم ، و يخبرهم أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هم الذين لا يدعون بدعاء الوثنية ، وهو معنى قوله : " لا يرقون " ، أى

لا يدعون دعاءً وثنياً للتعوذ من الشرّ. ولا يطلبون دفع الشرّ بمثل هذا الدعاء ، كما ورد في قوله : " لا يسترقون " ؛ أى لا يطلبون الرقية بمعناها الوثنى المخالف للإسلام. وفي قوله : " لا يتطيّرون " ؛ أى لا يتشاءمون . ولكنهم الذين يتوكلون على الله مع الأخذ بالأسباب الممكنة .

و هنا يطلب رجل أن يدعو له الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيعتذر بلطف ورقة قائلاً : سبقك بها عكاشة ، أى إن عكاشة بن محصن قد سبقه فى طلب الدعوة فاستجيب له .

و تعتمد القصة على عنصر الحوار القائم على السؤال و إجابته ، أو الحوار المترادف تفسيراً لأمر غير واضح ، أو الحوار الذى يجرى طلباً لمعروف أو تحقيقاً لرغبة وقد رأينا الرسول – صلى الله عليه وسلم يسأل الملائكة حول أسماء بعض الأمم العظيمة العدد حين ظن أنها أمته فأخبر أنها أمة موسى عليه السلام ، أما أمته فقد طلب منه النظر إلى الأفق ليراها جمعا كبيراً ، يثاب منه سبعون ألفا بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب .

و حين يخرج إليهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتحول الحوار إلى توضيح و بيان لهؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فهم المتوكلون على الله بعد الأخذ بالأسباب الممكنة ، دون أن يدعوا دعاء الجاهلية أو يطلبوا هذا الدعاء الوثنى .

ثم يتطور الحوار لتحقيق الرغبة بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب من بعض الصحابة حيث يسبق عكاشة بن محصن بطلب الدعاء لتتحقق له هذه الرغبة .

و بناء القصة يعتمد على التدرّج منذ عرض الأمم على الرسول – صلى الله عليه وسلم – مروراً بحديث الصحابة حول طبيعة الداخلين الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم يأتى التمهيد لنهاية القصة ببيان طبيعة هؤلاء بأنّهم الذين لا يطلبون الرقية المنهى عنها ولا يتشاءمون ، ولكنهم يتوكلون على ربهم حق التوكل ، ثم نصل إلى ختام القصة ببيان سبْق عكاشة فى الفوز بالدعوة النبوية لدخول الجنة بغير حساب .

أول ما تعلمنا القصة من معلمات ؛الإشارة الواضحة إلى مكانة الرسول – صلى الله عليه وسلم – المتميّزة بين الرسل و الأنبياء ، و مكانة الأمة الإسلامية بين أمم الأرض . فالرسول – صلى الله عليه وسلم – هو آخر الرسل و خاتم الأنبياء وصاحب الرسالة الشاملة الكاملة ، و أمة الإسلام هى الأمة التى يدخل الجنة منها – وهى الجمع العظيم . سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب لأنهم لا يطلبون الرقية المنهى عنها ، ولا يتشاءمون بل يتوكلون على الله حق التوكل بالأخذ بالأسباب .

وقد وُعد المسلمون المتقون هؤلاء بالجنة فى كثير من الآيات الكريمة التى وردت بالقرآن الكريم .

قال تعالى : "وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ...."(ق ٣١)

و قال تعالى : "وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ "(محمد : ٦)

و قال تعالى : "أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا "(الفرقان :٢٤)

ولا ريب أن التوكل على الله ، يعنى التسليم إليه فى كل حال ، مع الأخذ بالأسباب الممكنة ، لأن عدم الأخذ بها يعنى التواكل ، وقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لمن ضيع ناقته بعد أن دخل إلى الصلاة بحجة التوكل على الله :

" اعقلها و توكل "

فعَقْل الناقة أى ربطها أو تقييدها حتى لا تضل هو الأخذ بالأسباب المكنة ثم التوكّل على الله الذى يتكفل بحفظ الناقة ..

وقد وردت الآيات الكريمة فى القرآن الكريم بهذا المعنى الذى يجعل المسلم يتوكل على ربّه فى كل الأحوال :

"إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ...."(هود ٥٦)

"...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ..."(الطلاق :٣)

"....إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ "(يوسف ٦٧)

"وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ....."(إبراهيم : ١٢)

ومن هذا نفهم أن التوكل على الله هو أساس الحياة فى المجتمع الإسلامى ؛ أما التواكل فهو القعود عن العمل ، وعدم الأخذ بالأسباب ، والسلبية المرضية التى تكتفى بالكلام دون الفعل ، والقرآن الكريم يأمر العمل "وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ...."(التوبة : ١٠٥)

ومن معطيات القصة التنبيه إلى خطورة الدعاء بمنطق الوثنية ، ومثله التشاؤم فغير الله لا يملك للإنسان ضرّاً ولا نفعا ، وهو شرك و عودة إلى الجاهلية الأولى .

أما التشاؤم فهو محرّم على المسلمين ، لأن المصائر و الأعمار و الأعمال مقدورة بقدر الله ، ولا يملك الإنسان أن يغيّر من قدر الله ، وقد نعى الحق سبحانه على الأقوام السابقة تطيّرهم و تشاؤمهم ...

"قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ...."(النمل : ٤٧)

وها هم قوم موسى :

....وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ..."(الأعراف :١٣١)

وهاهم آخرون :

"قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ"(يس : ١٨)

ومن المعطيات التى تقدمها القصة ضرورة المبادرة إلى الخيرات واكتساب الحسنات ، فعكاشة بن محصن ، حينما رأى مصير الطيبين الذين دخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب لأنهم لم يطلبوا الرقية بمفهوم الجاهلية ولم يعرفوا التشاؤم و التطير ، بل توكلّوا على الله حق التوكل و أخذوا بالأسباب الممكنة ؛ كانت مبادرته و سبقه إلى طلب الدعاء من النبى - صلى الله عليه وسلم ليكون مثل هؤلاء الطيبين .. وعندما أدرك ذلك رجل آخر كان فى صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم - كرر طلب عكاشة ، و لكن الأمر كان قد فاته وصارت مقولة - صلى الله عليه وسلم - مثلاً يضرب فيمن يسبق إلى الخير و يطلبه فيفوز بثوابه .

**** ****

الصدقة فى غير موضعها

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

" قال رجل لأتصدّقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون :تُصُدِّق الليلة على سارق !

فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدّقنّ بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يدى زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصُدّق الليلة على زانية !

فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدّقن بصدقة ، فخرج فوضعها فى يد غنىّ ، فأصبحوا يتحدثون : تصُدّق الليلةَ على غنىّ !

فأتى ، فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفّ عن سرقته و أما الزانية فلعلها تستعّف عن زناها ، و أما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله ".

"أخرجه : البخارى و مسلم و أحمد و النسائى و البيهقى "

....

يحمل الحديث الشريف عناصر القصة الناجحة المؤثرة من فكرة و بناء متسلسل وتشويق وغاية .

فالفكرة تتحدث عن صدقة يعتزم رجل أن يتصدق بها ، ولكنها تذهب إلى من لا يستحقها . و يتحدث الناس بهذا الأمر الغريب ..

و يقوم البناء على تتابع الحدث ، حيث يتصدق الرجل على لصّ فى أول الأمر و عندما يعلم أنه تصدق على غير مستحق يحمد الله ، ثم يكرر التصدق ، فيتصدق على زانية وعندما يعلم أنها وقعت فى يدٍ لا تستحق ، يحمد الله ،

ويتصدق مرة ثالثة ، فتقع فى يد أحد الأغنياء الذين لا يستحقونها . وهو ما نفهمه من قوله : " وضعها فى يد سارق .. زانية .. غنيّ " ، أى سلّم الصدقة إلى لصّ ، وهو لا يستحق الصدقة ، ومثله الزانية والغنى فهم جميعاً لا يستحقون الصدقة .

ويتشوق الناس إلى معرفة خاتمة القصة ، فيعرفونها من خلال الوجه الآخر لتصدق الرجل على من لا يستحق ، ويتمثل هذا الوجه فى أن الصدقة قد تكون وسيلة دافعة للصّ كى يتوب عن السرقة ، والزانية كى تتعفف عن الزنا ، والغنى كى يبذل ماله فى سبيل الله . وهو ما يفهم من قوله : " يستعف " أى يتعفف ويبتعد عن السرقة أو الزنا أو البخل .أو بالنسبة للغني " فلعله أن يعتبر فينفق " يقصد أن يأخذ العبرة ممن وضع فى يده الصدقة ويقتدى به ويقوم مثله بالتصّدق والإنفاق على المحتاجين والمستحقين للصدقات .

- و نجد فى القصة حواراً يدور بين الناس وبين بطل القصة أو شخصيتها الرئيسية وهو الرجل المتصّدق ، حيث يتعجبون عند إخراج الصدقة لمن لا يستحق من وجهة نظرهم ولكنه يردّ عليهم – وكأنه يحدث نفسه – " اللهم لك الحمد لأتصدقن بصدقة " ويتكرر هذا الحوار مع الصدقات الثلاث . ثم يأتى أخيراً ، وكأنه يتساءل عن مصير صدقاته وهل وقعت فى يد من يستحق أم لا ؟ وتكون الإجابة بأنها مقبولة – إن شاء الله – وقد تكون سببا فى توبة العاصى وحافزاً على الخير للغافل .

من خلال القصة نفهم أن الصدقة سلوك إسلامى نبيل له دوره الكبير فى بناء المجتمع الإسلامى ، والحق سبحانه وتعالى يسلك المتصدّقين والمتصدقات فى سلك عباده الأخيار الذين وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم :

"إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا "(الأحزاب ٣٥)

و الصدقة مطلوبة علناً (مثل إخراج الزكاة) أو سراً مثل بقية الصدقات .

قال تعالى : "إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ "(البقرة :٢٧١)

و إخراج الصدقة يعلم الإنسان الذوق و مراعاة شعور الآخرين "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ...."(البقرة : ٢٦٤)

و الصدقات المفروضة تصرف فى مصارفها المشروعة فتؤلف بين القلوب ، وتوّطد المودة بين الناس ، و تخدم الدين بالدفاع عنه و بناء المجتمع المسلم .

و تعطينا القصة مفهوماً متقدّماً للصدقة و معناها و دلالتها ، فهى تعنى الخير، وهى وسيلته المتقدمة ، و تحسب لصاحبها وفقا لنيته و سلوكه ، حتى لو وقعت فى يد من لا يستحقها فللمتصدق الأجر و الثواب – إن شاء الله – مادامت نيته هى الخير ، وسلوكه هو التزاحم بين المسلمين ، ورغبته مساعدة من توجه إليه .

و إذا كانت الصدقة توجه أولاً لأهل الصلاح ، فإن هذا لا يمنع أن توجه لمن يرتجى صلاحهم و خيرهم ، فالإنسان دائماً يحمل بين جبينه عنصراً خيراً مهما بدا شريراً وقاسيا فقد يتعفف اللص ، و تتوب الزانية ، و ينفق البخيل ، و يزداد المنفق الغنى إنفاقاً .

**** ****

النعيم و الجحيم

عن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فَيُصْبغُ فى النار صبغة ثم يقال :

- يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قطُّ؟
- هل مرّ بك نعيمُ قطُّ؟
- فيقول :
- لا ، والله ، يارب ؟
- ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة ، فيُصْبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت بؤساً قطّ؟
- فيقول :لا ، والله ، ما مرّ بى بؤس قط ، ولا رأيتّ شدة قطّ ".

"أخرجه مسلم"

....

نلاحظ أن السرد أو الحكى فى القصة يأتى بصيغة المبنى للمجهول : " يؤتى بأنعم أهل الدنيا : ويقصد بهم الذين عاشوا فى نعيم الدنيا كما لم يعش غيرهم واستمتعوا بنعيمها كما لم يستمتع غيرهم . " و يؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا ..." أي أشدّهم فقرا ومعاناة . ليقدم لنا الحدث الذى يدور حول أهل الجنة و أهل النار ، فالذى يقوم بالإتيان مجهول ، ولكننا نعرفه من السياق وهو الملائكة الذين يوكّلون بالجنة و النار ، وأنعم أهل الدنيا وأشدّهم بؤسا ، مطلق شخصيات منعّمة أو بائسة ، عاشت فى نعيم الدنيا فلم تشعر

بالبؤس أبداً ؛ أو عاشت في البؤس فلم تذق طعم النعيم قط ، ولكن وضع كل من هؤلاء وأولاء موضع الآخر في الجنة أو النار ، يجعله لا يشعر بما عاشه في الدنيا أبداً . وهو ما يفهم من قوله : " يصبغ في النار " أي يغمس فيها ليذوق العذاب . ومن قوله : " فيُصبغ صبغة في الجنة " أي يوضع في الجنة لبعض الوقت ليذوق حلاوتها و نعيمها .

المنعّم ينسى أنه ذاق النعيم بسبب ما داقه في النار كما نرى في التساؤل : " هل مرّ بك نعيم قطّ " أي هل ذقت نعيماً من قبل . ، و البائس في الدنيا ينسى بؤسه بمجرد أن يذوق طعم الجنة كما يقال له : " هل مرّ بك شدّة قط ؟ " أي هل رأيت شدّة و معاناة و تعباً في الدنيا من قبل ؟ "

.. و هذه القاعدة تحكمها عملية الاتصال بالله و الإخلاص له من عدمه ، فالذي يعيش على صلة بالله و إخلاص له و قيام بحقوقه يدخل الجنة ولو كان بائساً في الدنيا ، فقيراً معدماً ، ومن انقطعت صلته بالله ولم يخلص له دخل النار ولو كان غنيا مرفهّا و منعما .. المعيار الذي نستخلصه من القصة هنا هو الإيمان بالله .. فمن يملك الإيمان محظوظ ، ولو كان فقيراً ، ومن يفقد الإيمان تعيس ولو كان غنيّاً .

إن ختام القصة يتضح في سياق المنعّم و قصة البائس .

الأول يقول : ما مر بي نعيم قط لأنه شهد العذاب

و الآخر يقول : ما مر بي بؤس قط لأنه شهد النعيم .

معطيات القصة :

من يتأمل القصة جيداً يدرك عدالة رب الناس المطلقة ، فهو الذى قال :

"فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ "(الزلزلة :٧-٨)

لا مكان عنده لحالة الإنسان من حيث الغنى أو الفقر ، أو الأصل أو الحسب أو النسب ، أو النعيم أو الفقر..

الأصل فى العدالة الإلهية هو الإيمان الذى يصدّقه العمل ، فمن عمل صالحاً وخيراً و إحساناً له مكانة فى الجنة ولو عاش فى أحط دركات البؤس والشقاء والمعاناة ومن عمل عملاً غير صالح ، ولم يلتزم بالعقيدة و أشاع الشرّ فى المجتمع كان مصيره إلى العذاب الذى ينسيه كل ما استمتع به فى الدنيا من نعيم ورفاهية .

قال تعالى : "بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ "(البقرة :٨١) .

و يتحدث القرآن الكريم عن المشركين و الكفار الذين قطعوا صلتهم بالله :"....وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ "(آل عمران : ١٠)

و يقدم لنا القرآن الكريم مفارقة دالة حين يذكّر أهل الجنة أصحاب النار بما كان بينهما فى الدنيا من موعدة إلهية تحققت و صدقت :

"وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ...."(الأعراف :٤٤)

و يؤكد القرآن الكريم على مصير أهل الخير و الإيمان "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...."(البروج :١١)

"إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ "(الطور: ١٧)

"إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ "(القمر ٥٤-٥٥)

و تعطينا القصة دلالة واضحة على أن المرفهين فى الدنيا لا يعنى أنهم مرفهون فى الآخرة ، و أن البائسين فى الدنيا لا يعنى أنهم بائسون فى الآخرة ، فالنعيم فى الآخرة مربوط بعمل صاحبه و مطابقته لإيمانه ..

وهو ما ينفى وهم بعض الناس أن المنعم فى الدنيا هو المنعم فى الآخرة أو أن الشقى فى الدنيا هو الشقى فى الآخرة .. هذا الوهم ينفيه و يدحضه تنعّم البائسين فى الدنيا بنعيم الآخرة ، و شقاء المنعمين فى الدنيا بعذاب الآخرة .. ومناط النعيم والجحيم فى كل الأحوال هو الإيمان والإخلاص ..فمن كان لديه إيمان و إخلاص تنعم فى الآخرة ولو كان شقيا فى الدنيا ، ومن افتقد الإيمان و الإخلاص فى الدنيا تعذب فى الآخرة ولو تنعم فى الدنيا .

**** ****

رحمة اللّه

عن عمر بن الخطاب – رضى اللّه عنه – قال :

" قدم رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – بسبى . فإذا إمرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيّاً فى السبى أخذته فألزقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم :-

" **أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟** ".

قلنا : لا ، و اللّه .

فقال : لَلّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها "

" أخرجه البخارى و مسلم و البغوى و الطبرانى .. "

....

تبدأ القصة بامرأة تبحث عن ولدها المفقود ضمن الأسرى : **أي " السبّى "** أي الذين أسرهم المسلمون ، وحين تعثر عليه فإنها تحتضنه وترضعه رحمة به ولهفة عليه .

ومن خلال منظر هذه المرأة المتلهفة على طفلها لإرضاعه و إشباعه بعد أن افتقدته لبعض الوقت ضمن الأسرى ، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف بقوله :"**تسعى**" أي تسير مسرعة بحثاً عن وليدها الذى تفتقده ، نرى الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – يحاور أصحابه عن طريق السؤال و الجواب ، فيطرح عليهم سؤالاً إجابته بالنفى يتضمن أمراً مستحيلاً أو شبه مستحيل : هل يمكن لهذه المرأة أن تلقى بولدها فى النار ؟ أوكما ورد في قوله : " **أترون ؟** " " أى أتظنون أنها تطرح ولدها فى النار ؟

والغاية من السؤال كما نرى بيان مدى حب الأم لابنها ولهفتها عليه ورحمتها ..ومن ثم تبدأ المقارنة بين رحمة هذه الأم بابنها ورحمة الله جل وعلا بعباده ، وتكون رحمة الله بعباده فوق رحمة الأم بابنها على أهمية هذه الرحمة وارتباطها بغريزة الأمومة وعاطفتها ..إن رحمة الله بلا حدود .

تعطينا القصة صورة من صور رحمة الأم بابنها ، فالأم في الإنسان والحيوان ترتبط بابنها ارتباطا طبيعياً وفطرياً ، فلا يوجد من الكائنات البشرية والحيوانية من هو أرحم بالابن وأكثر عطفا عليه من الأم ، وهي الوحيدة التي تتحمل متاعب الولادة والرعاية بعد الولادة ..وما أدراك ماهذه الرعاية ؟ إنها عناء بالليل والنهار.. سهر دائم ويقظة مستمرّة للعناية بالوليد الذي لا يملك من أمره شيئاً ولا يستطيع النهوض بنفسه ..

وقد جعل الله سبحانه الرحمة فطرة طبيعية في الأم تجاه ولدها ، ومهما تكاثرت عليها المغريات والمرهبات فلن يمنعها مانع عن الاهتمام بولدها والعناية به والعطف عليه وتقديمه على نفسها .. وهذه الرحمة الفطرية المغروسة في وجدان الأم المختلطة بكراتها الدموية وغريزتها الطبيعية لا توجد عند أحد آخر على ظهر الأرض إلا في أم الإنسان و أم الحيوان ..

هذه الرحمة في سخائها وكرمها وإغداقها توجد عند رب الناس رحمة أكثر سخاء منها وكرماً وإغداقاً ، إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبرنا أن الله أرحم من الأم بأكثر مما يتخيل الناس ، وهو أرحم بعباده فوق ما يتصوّرون .. يكفي أن الأسماء الحسنى لله جل وعلا تضم الرحمن والرحيم .. وقد جاء كل منهما على صيغة المبالغة التي تعني أن الرحمن والرحيم كثير الرحمة أو عظيم الرحمة أو لا يوجد من هو أرحم منه في العالم ..

و لأمر ما جاءت سور القرآن الكريم كلها مبدوءة باسم الله الرحمن الرحيم عدا سورة واحدة هى سورة " التوبة " التى نزلت على الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى أثناء القتال ومع ذلك ورد فيها وصف الحق سبحانه و تعالى بالرحيم فى ثمانى مواضع ، ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى موضع واحد بالرحيم.

كما ورد لفظ الرحمة و مشتقاتها فى القرآن الكريم فيما يقرب من أربعمائة موضع ، مما يدل على رحمة الله الواسعة التى لا حدود لها.

قال تعالى : "مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ...."(فاطر:٢)

و قال تعالى : "...وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ "(الزخرف : ٣٢)

و قال تعالى : "هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ "(الجاثية : ٢٠)

هذه الآيات وغيرها تشير إلى رحمة الله المنظورة فى الدنيا و المتوقعة فى الآخرة .. إنها رحمة ممتدة فى عطائه و هديه و نعمه و آلائه ، وهى بالتأكيد تفوق رحمة الأم بولدها.

ومن معطيات القصة أن رحمة الله تفتح باب التوبة أمام الإنسان فلا يستسلم لليأس ، ولا يغرق فى الخطأ ، ولا ينغمس فى الإثم.

قال تعالى :

"قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ "(الزمر : ٥٣)

و قال تعالى :

"...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ "(غافر:٧)

و قال تعالى :

"....فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ "(البقرة ٦٤)

ولا شك أن رحمة الله بعباده و الإلحاح عليها فى شتى المناسبات من خلال القرآن الكريم ؛ تعلمنا نحن المسلمين أن نكون رحماء في تعاملنا وعلاقاتنا ، ومع بعضنا وأهلنا وذوينا وزملائنا ومواطنينا .. إن الرحمة حين تشيع بين الناس تشفى كثيراً من الأمراض الاجتماعية المزمنة ، و تساعد على حل كثير من المعضلات الصعبة ، و توّطد أواصر العلاقات الإنسانية بين الأفراد و تشدّها بروابط من المحبة والإخاء ..

وقد كتب الأديب الراحل " مصطفى لطفى المنفلوطى " فصلاً رائعاً عن الرحمة بدأه بقوله : " لو تراحم الناس ما كان بينهم مغبون ولا عارولا جائع ، و لأقفرت الجفون من المدامع .." و هذا الكلام صحيح مائة بالمائة لأنه ينبثق من الإيمان برحمة الله لعباده التى يجب أن تشيع بينهم فى كل مكان وزمان .

**** ****

الحب فى الله

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم قال :" إن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى . فأرْصَدَ الله تعالى على مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً ، فلما أتى عليه قال :

- أين تريد ؟
- قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية .
- قال : هل لك من نعمة تربُّها عليه ؟
- قال : لا .. غير أنى أحببته فى الله تعالى .
- قال : فإنى رسول الله إليك ، بأن الله قد أحبَّك كما أحْبَبْتَهُ فيه "

" أخرجه : مسلم و أحمد "

....

تعتمد هذه القصة على السرد أو الحكى بالإضافة إلى الحوار و الشخصية .

ونلاحظ أن السرد هنا يعتمد فى مجمله على الفعل الماضى : زار – أرصد – أتى – أحبّ ، و ذلك لتوكيد الغاية من القصة على أساس حدوث الموضوع القصصى ، وهو ذهاب رجل إلى رجل آخر يحبّه فى الله تعالى .

و الرجل هنا بلا ملامح خارجية أو داخلية اللهم إلا رغبته الخالصة و الصادقة فى الذهاب إلى صاحبه من أجل الثواب الإلّهى . و بالطبع ، فإن هذا الرجل نموذج شائع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يحب الرجل أخاه فى الله دون غرض أو هوى ، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف بقوله: " أخاً له " يقصد الأخوة فى الدين وليس الأخوة فى النسب .

وهو ما تكون نتيجته التى نراها فى ختام القصة على لسان الملك الذى أرصده الله تعالى فى طريقه ؛ أى جعل له مَلكاً على مدرجته ، و المدرَجة هى الطريق و سميت

كذلك لأن الناس يدرجون عليها و يمشون : بأن الله يحب من يحب فيه ، أو بلفظه " بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه " ..

وهذا ثواب يطمح إليه كل مسلم صادق الإيمان .

كما نلاحظ أن الحوار فى هذه القصة يخدم تسلسل الموضوع ، و يكشف عن طبيعة الشخصية الرئيسية فيه ، " فلّما أتى عليه " أى وصل إليه .راح الملك يسأل الرجل عن وجهته ، و عندما يجيب الرجل بأنه يريد أخاه المسلم فى هذه القرية يسأله : هل لك من نعمة تقوم بها وتسعى فى صلاحها .. وعبر عن النعمة بقوله: " ترّبها " أى تقوم بها وتسعى فى صلاحها .

أى إن الملك يسأله عن الغاية من رحلته ، و يفترض مسبقاً أنها من أجل مصلحة أو أجل منفعة ، كما يفعل أغلب الناس فى كل زمان و مكان ، ولكن الرجل المسلم الذى يفهم العلاقة بين المسلم و أخيه على وجها الصحيح يخبر الملك أنه لا يبغى مصلحة أو منفعة من أخيه المسلم الذى يزمع زيارته .. ولذا كان قوله : "أحببته فى الله " ؛أى أحببته من أجل ثواب الله تعالى . إنه يحبه فى الله تعالى وكفى ، و بالطبع تكون المكافأة الإلهيّة أن الله يحبّه كما أحبه فيه .

أول ما نلاحظه فى القصة هو مفهوم الحب . فالحب هنا مقرون بثواب الله وطاعته ، إنه حبّ سام يفوق الحب الذى تصنعه المصلحة أو الغريزة . الحب فى المفهوم الإسلامى عطاء بلا حدود ولا قيود ، فيه رغبة الخدمة الخالصة الصادقة للمجتمع الإسلامى على مستوى الفرد و الجماعة . الحب هنا لا ينتظر مقابلاً من المحبوب ، و فى تطبيقه العملى يبتعد هذا الحب عن الإعلان عن نفسه ، أو طلب الشهرة أو الوجاهة.

إنه حبّ الزاهدين الذين يحبّون فى صمت و يعطون فى خفاء ، لأنهم ينتظرون ثوابهم من المحبوب الأعظم . وهو ثواب يفوق كل ما لدى البشر من ثواب .

لقد اختص الله سبحانه بعض خلقه المؤمنين بحبّه .

قال تعالى : "....إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ "(المائدة :١٣)

و قال تعالى : "....إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ "(المائدة : ٤٢)

و قال تعالى : "....إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ "(التوبة : ٧)

و قال تعالى : "....وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ "(التوبة ١٠٨)

و قال تعالى : "إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ "(الصف ٤)

و الحب فى الله من أنبل أنواع الحب لأنه ، لا يرتبط بالمصالح الشخصية أو الأغراض الدنيوية ، لذا فجزاء صاحبه هو الفوز بمحبة الله ، و أنعم بها من محبة .

ومن القصة ندرك دور الملائكة فى التبشير بهذه المحبة . إنها تبشر المؤمنين الذين يحبون فى الله بما ينتظرهم من ثواب فى الآخرة .

وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم أشدّ حبّاً لله ، و الفارق بينهم و بين المنافقين يتضح فى قوله تعالى :"وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ "(البقرة : ١٦٥)

فالمنافقون يحبون من جعلوهم أنداداً لله ، أما المؤمنون فهم اشد حبّاً لله الذى يعبدونه دون غيره ، ولا يدينون بالولاء لأحد سواه ، لذا استحقوا حب الله ورعايته .

"....يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ "(المائدة : ٥٤)

محبة الله التى نفهمها من القصة ميدان كبير يتنافس فيه المتنافسون لأنه عطاء بلا حدود ، وبذل بلا مقابل ، و كلما فشت هذه المحبة قوى المسلمون وانتصروا فى دنياهم و أخراهم .

قوموا إلى الجنة -١

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال :

بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بُسَيْسَة عَيْناً ينظر ما صنعته عير أبى سفيان ، فجاء وما فى البيت أحد غيرى ، و غير رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

قال : لا أدرى ما استثنى بعض نسائه فحدثه الحديث .

" إن لنا طِلبةً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا " فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى علو المدينة .

قال : لا ، إلا من كان ظهره حاضراً ".

فانطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، و جاء المشركون ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" لا يتقدّمَن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا آذِنهُ "

فدنا المشركون ، فقال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض "....

" حديث صحيح أخرجه أحمد و آخرون "

....

هذه القصة النبوية تدور فى إطار فى غزوة بدر ، و تقدم جانباً من جوانبها وما أكثر الجوانب التى تحملها هذه الغزوة المباركة ، التى أحدثت تحوّلاً خطيراً فى تاريخ الإسلام و المسلمين ، حيث انتقلت بالدعوة من حال المطاردة و الهجرة ، و الحصار و التآمر إلى حال المبادرة و الدفاع ، و إثبات الذات و الوجود ..

وفى السنة الثانية للهجرة ، و بدءاً من هذه الغزوة المنتصرة الظافرة ، صار للإسلام والمسلمين كيان يعترف به الأعداء و الخصوم ، و يقرّ به الحلفاء و الجيران ..

و أخذ هذا الكيان ينمو و يقوى و يتحول إلى رقم فى المعادلة السياسية والعسكرية على أرض الجزيرة العربية ..

لقد كان المسلمون قلّة بالنسبة للمشركين ، جاء نبيهم – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، مهاجرين من مكة إلى المدينة ، يطاردهم المشركون ، و يقتفون أثرهم للقضاء عليهم ، ولكن الله أيدهم بأنصاره ، فاحتضنوهم فى يثرب ، و أقاموا معاً المجتمع الإسلامى الأول ، حيث صار للإسلام مسجد ، و صار المسلمون يقيمون الصلاة بلا خوف ولا فزع ، ويمارسون شعائرهم فى النور و العلن ، بعد أن كانوا عرضة للمطاردة و الملاحقة و الأذى ..

وفى هذه القصة النبوية ، نرى بداية المواجهة بين المسلمين و المشركين ، حيث علم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن قافلة لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب زعيم المعسكر المعادى للإسلام آنئذ ، قادمة من الشام إلى مكة تحمل البضائع و الطعام ..

و أذن الله للمسلمين أن يدافعوا عن دينهم و يؤلموا المشركين ، حتى يتوقفوا عن إيذاء المسلمين و ملاحقتهم ..

وكانت قافلة أبى سفيان أو العير ، أى الإبل التى تحمل البضائع و الطعام هى الهدف الأول الذى يقصده المسلمون لإجبار المشركين على الكف عن إيذاء المسلمين .

و القافلة هدف مهم للغاية لأنها تحمل مئونة قريش و لوازمها من البضائع و الأمتعة ، حتى تأتى قافلة أخرى بعد شهور أو عام ، وكان لابد أن يترصدها المسلمون ..

ومن ثمّ ، بعث الرسول – صلى الله عليه وسلام – بُسَيْساً ، واسمه الأصلى بُسَيْس بن عمرو ، و يقال ابن بشر ، وهو أنصارى من الخزرج ، ليتجسّسَ على قافلة أبى سفيان و يكون عيناً عليها ، ليرى كيف تسير ، و إلى أين تتجه ، و عدد أفرادها....إلخ .

و ذلك حتى يضع الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – الخطة الملائمة التى تحقق له ما يريد من مهاجمة القافلة ، و ضرب قريش فى مقتل .

و قد استعان الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالسّرية و الكتمان فى تخطيطه كما يقول أنس بن مالك رضى الله عنه – وهى أوّلية العمل العسكرى حتى يومنا هذا . فالعمل على المكشوف فى الحروب قد يهيئ للعدوّ فرصة الاستعداد لتفادى الهجمات المباغتة ، وتفويت الفرصة على المهاجمين فى تحقيق نجاح أو انتصار . ولذا كان حديث النبى – صلى الله عليه وسلم – حول الاستعداد و الخروج ، فقد استقبل بُسيساً ومعه أنس وحدهما ، حيث سمعا حديثه ، وربما سمعه بعض نسائه ..

ثم يعلن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه عن الخروج إلى ميدان القتال . و يقول : " إن لنا طِلْبَةً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا " .. ولنا طلبة ، أى طلبا و هدفاً و غاية ، ولم يقل الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – ماهو المقصود بالطلبة كى لا يشيع الخبر فيعرفه العدوّ و يتجنب المواجهة .

لقد أعلن أن لنا غاية معينة ، تقتضى ممن له ظهر ، أى راحلة ، سواء كانت من الإبل أو الخيل ، فليركب معنا ، أى فليسر معنا ، و يمضى إلى حيث نقصد .

وكان هناك من لا يملك ظهراً حاضراً فى اللحظة ذاتها ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم – كى يذهب إلى ضاحية المدينة ، و هنا يقصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمره ، على من كان ظهره حاضراً ، أى مركوبه موجوداً ، لأن الأمر عاجل ويقتضى الخروج و السير سريعاً إلى الهدف المطلوب .

و انطلق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر و انتظروهم هناك ، و حضر المشركون أو وصلوا إلى بدر ، و هنا خاطب النبى – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه :

" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض ".

و معنى قوموا إلى جنة ، أى استعدوا للحرب و القتال ضد العدو ، و خوضوا المعركة بروح الاستبسال الذى يؤدى إلى الشهادة ، و مصير الشهداء هو الجنة ، كما وعد رب العزة .

" وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ "

(آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤)

و أعظم الإنفاق – بلا ريب – هو إنفاق النفس فى سبيل الله ، و دفاعاً عن دين الله ..

**** ****

قوموا إلى الجنة - ٢

رأينا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حديث أنس يدعو أصحابه إلى القيام بواجبهم فى مقاتلة المشركين عند بدر، و عندئذ قال عمير بن الحُمام الأنصارى :

" يا رسول الله ، جنة عرضها السموات و الأرض ؟

قال : " نعم " .

فقال : بخٍ بخٍ.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- " ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟".

قال : لا و الله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : " فإنك من أهلها ".

فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة .

قالت : فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم ، حتى قتل رضى الله عنه .

....

استعان النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسّرية و الكتمان فى التخطيط لمواجهة المشركين عند بدر و أرسل بُسيساً يستطلع الموقف ، و يتجسس على الأعداء وهو أى التجسس أمر مشروع حين يكون على الأعداء ، و كشف أسرارهم و مواقفهم التى يمكن أن تضر بالمسلمين وتؤثر عليهم فى ميدان القتال ، أو على قوتهم بصفة عامة .

ثم إنه - صلى الله عليه وسلم - طلب ممن له مركوب - أى راحلة - أن يخرج فى الحال إلى حيث يقصد ، دون أن يصّرح بقصده حتى لا يعرف المشركون

مراده فيتجنبوا مواجهته ..و أوصى المسلمين حين سبق المشركين ، ووصل إلى بدر قبلهم :" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض "..

إن القيام إلى هذه الجنة إغراء ، يجعل كل مسلم يتشوق إليها ، و يسعى بكل ما يملك ليصل إلى بابها ، والتعبير كناية عن الشهادة فى سبيل الله ، التى يكون ثوابها جنة عرضها السموات و الأرض كناية عن اتساعها و عظمتها ، مما يعنى أن الدفاع عن العقيدة و الأوطان له قيمة غالية فى التشريع الإسلامى ، فقد فضل الله المجاهدين على القاعدين وجعل الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

و قد حرّك النداء النبوى الكريم للمسلمين بالقيام إلى الجنة الواسعة العظيمة عواطف أصحابه ، و جعل القصة تتصاعد فى حركتها نحو الذروة ، حيث جرى حوار مهّم ومؤثر ، بين عُمير بن الحمام ، و الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودلالته تصب فى كيفية تطبيق النداء النبوى الكريم .

" قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض ".

يبدأ الحوار بسؤال عمير : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض؟ و كأن عميراً لم يصدق أو يستهول عظمة الصورة و ضخامتها للجنة الموعودة. ومع ذلك ، فإن إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – تأتى هادئة مؤكدة و قاطعة : " نعم " .

و هنا يقول عمير : بخٍ بخٍ . أى ما أحسن هذا الأمر وما أعظمه .

و يسأله الرسول – صلى الله عليه وسلم – عما يحمله على قول بخٍ بخٍ ، و هو يعلم أن المقابل هو تقديم الحياة فى ميدان القتال فداءً للعقيدة و الدعوة و الوطن .

فيجيب عمير : لا و الله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها . أى ما قلت هذه الكلمة الكررة بخ بخ ؛ إلا رجاء أن أكون من أهل الجنة التى عرضها السموات والأرض .

وهنا تكون البشارة النبوية :

" فإنك من أهلها ".

أى إن عميراً من أهل الجنة الواسعة العريضة ؛ بفضل الله .

و تتبدى قوة الإيمان لدى عمير ، حين يخرج تمرات من كيس النشاب أو السهام الذى يسمى قرن النشاب ، وراح عمير يأكل هذه التمرات و يقول : لئن أنا حييت حتى أنتهى من هذه التمرات فمعنى ذلك أن هذه الحياة ستكون طويلة ، وهو كناية عن شدة شوقه إلى الجنة الواسعة ورغبته أن يذهب إليها سريعاً قبل أن يتم أكل تمراته . وقد تحققت هذه الرغبة بالفعل حيث رمى عمير بما كان معه من التمرات ، و اندفع إلى ميدان القتال ، يقاتل المشركين بكل ما يملك من قوة حتى ينال الشهادة ، وقد نالها بالفعل ، و تحققت بشارة النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم – بدخول الجنة الواسعة العظيمة التى عرضها السموات و الأرض .

إن غزوة بدر فى جوانبها المختلفة تقدم درساً عميقاً فى مجال الإيمان والعقيدة والتخطيط العسكرى ، و مواجهة العدوّ ، و تحقيق النصر و الشهادة .

وهنا جانب من جوانبها ترويه القصة النبوية ، حيث تصوّر السرّية فى جمع المعلومات ، ووضع الخطط و بناء الروح المعنوية التى تواجه العدّو بقلب حديدى لا يهاب الموت .

**** ****

رجل من بنى حنيفة -١

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خيلاً قبل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ، ثمامة بن أثال ، سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم فقال له : " ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

قال : عندى يا محمد خير. إن تقتل تقتل ذا دم ، و إن تنعم تنعم على شاكر، و إن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

حتى إذا كان الغد قال : " ماذا عندك يا ثمامة ؟"

قال : ما قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر، و إن تقتل تقتل ذا دم ، و إن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى كان بعد الغد ، فقال :

" ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

فقال : عندى ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكر ، و إن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت ..

" حديث صحيح أخرجه البخارى و آخرون "

....

يضع الإسلام أسساً إنسانية للتعامل مع الأعداء و الخصوم ، تظل منارة هادية لكل من يريد الهداية و السلوك الإنسانى القويم ، وفى الوقت ذاته ترد على من يظلمون الإسلام و يتهمونه بتهم غير حقيقية ، و تلصق به ما ليس فيه .

إن العلاقة مع الآخر ، ولو كان عدواً لدوداً تأخذ صورة غير مسبوقة فى التاريخ الإنسانى ، حين نقيسها بمقاييس الإسلام التى تقدم السلام و المودة و الخير

على الحرب والكراهية والشر .. فما انتشر الإسلام بالسيف كما يردد المفترون الظالمون ، ولا ساد بالعنف والاضطهاد كما يرجف المفترون الطاغون .

و هذه القصة النبوية الشريفة تقدم لنا حدثاً واقعيا جرى على أرض نجد فى قلب الجزيرة العربية ، حيث قبيلة من أشهر قبائلها وهى قبيلة بنى حنيفة.. فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم – كما يروى أبى هريرة رضى الله عنه – مجموعة من الفرسان إلى نجد أو أرسل خيلاً قبل نجد ، أى نحو نجد كما يقول أبو هريرة .

وكان إرسال هذه المجموعة لتأمين المسلمين و إتقاء شرّ من يهددّهم بالإغارة أو شن الحرب .

و استطاع الفرسان أن ينجحوا فى مهمتهم ، و يأسروا " ثمامة بن أثال" سيد أهل اليمامة ، وهو من بنى حنيفة .. وكان عليه أن يخضعّ لما يخضع له الأسرى وفق مفهوم هذا العصر و تقاليده و قيمه فى التعامل مع الأسرى .

بالطبع لم يكن هناك آنئذ أماكن احتجاز للأسرى أو سجون أو معتقلات يوضع فيها أسرى العدّو ، ولكن التحفظ على " ثمامة " اقتضى ربطة بسارية ، أى عمود من سوارى المسجد حتى لا يهرب ، ثم يرى المسلمون فيه ما يراه رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

و كما نرى فالقصة تجرى فى تسلسل قصصى يشوقنا إلى معرفة بقية الأحداث التى تتصاعد شيئاً فشيئاً .. فالشخصية المهمة فى القصة هى شخصية زعيم بنى حنيفة و سيّد أهل اليمامة ، وهو ليس رجلاً عادياً أو بسيطاً ، وقد جىء به أسيراً إلى المدينة المنورة وتم ربطه فى سارية المسجد حتى يُنظر فى أمره ، فماذا جرى له ؟

لقد خرج الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ثمامة ، و سأله :

" ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

والسؤال هنا يعنى أكثر من معنى أو أكثر من مستوى دلالى ، ولكنه يريد بصفة عامة أن يستخرج ما فى باطن الرجل من رأى ورغبة .

كأنه – صلى الله عليه وسلم – يسأله : أى شىء عندك يا ثمامة ؟ أو ماذا تظن أن أفعل بك يا ثمامة ؟

وبالتأكيد ، فإن ثمامة ، أو من فى مثل موقفه الصعب ؛ لابد أن يرجو الخير عند النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى اشتهر بالعفو عمن ظلم ، والرحمة بالضعيف والإحسان إلى المسىء..

و هذه صفات يشهد له بها أعداؤه قبل أحبابه ، حيث يرونه إنساناً فى خلقه إنساناً فى تصرفاته ، إنساناً فى مشاعره وعواطفه ، على عكس ما يصوره به المتعصبّون الأشرار الذى يعيثون فساداً فيقتلون الضعفاء ويحتلون أراضيهم ويحرمونهم من عقيدتهم وشريعتهم وينهبون بلادهم وخيراتهم ..

محمد – صلى الله عليه وسلم – يسأل ثمامة عما يظن أن يفعله به ؟ ويجيب ثمامة وفق فطرته ، والمفاهيم التى استقرت وسادت فى زمانه وعصره ، فيقول :" **عندى يا محمد خير**. إن تقتل تقتل ذا دم ، إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت "

إن الرجل يطرح الخيارات الثلاثة : القتل ، المنّ ، الفداء ، ولكل خيار من هذه الخيارات وجهه ومنطقه وحيثياته وفقا لمفهوم ثمامة ، ومفهوم زمانه ، وهو ما استمع إليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – أول مرة ، ولم يعلق عليه ، ثم سمعه ثانية وثالثة .

رجل من بنى حنيفة -٢

فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه كشف لنا قصة أسر ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة ، من بنى حنيفة ، ورأينا كيف كان يردّ على النبى – صلى الله عليه وسلم ، ويكرر إجابته : " إن تقتل تقتل ذا دم ، إن تنعم تنعم على شاكر ، و إن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت ".

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : " انطلقوا بثمامة " فانطلقوا به إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله ، يا محمد و الله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ .

❖ ووالله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الأديان إلىّ

❖ ووالله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ .

و إن خيلك أخذتنى ، و أريد العمرة ، فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبأت .

فقال : لا .

ولكن أسلمت مع محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا و الله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم ..

....

من يدرس تاريخ الإسلام ، و خاصة فى مرحلة البعثة ، و يرى مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم – مع المشركين و الكافرين و المنافقين ، يتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام هو الذى يفرض نفسه على القلوب و العقول ، و أن ما يفتريه بعض الظالمين المتعصبين عن نشر الإسلام بالسيف ، هو فرية لا أساس لها من الصحة تاريخيا أو واقعياً .

إن الحــروب الــتى خاضـها الإسلام كانـت دفاعـاً عـن وجـوده ، و تأمينـا لأتباعـه و ترسيخاً للأمن فى ربوعه ، ولم تكن لإرغام الناس على الدخول فى دائرته ، والبحث عن الغنائم ، و إيذاء المخالفين كما يزعم المفترون المتعصبّون ..

وهانحن نرى محمـداً – صلى الله عليه وسلم – يترك لثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة وزعيم بنى حنيفة ، أن يختار و يقرر ، ليس من أول مرة ، ولكن بعد مرات ثلاث يقول فى كل منها :

" إن تنعم تنعم على شاكر ، و إن تقتل تقتل ذا دم و إن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت ".

إن الإنعام المقصود فى كلام ثمامة ، هو المّن ، أى الإفراج عنه بعد الأسر ، وتركه يعود إلى أهله و قومه ..

و هذا الإنعام يستوجب الشكر ...و الشكر سلوك يحبذه العرب و أقره الإسلام .

فكل من يحسن إليك يستوجب الشكر . " من أسدى إليكم معروفاً فاشكروه " ..

بل إن الشكر فى الإسلام يأخذ أبعاداً أعمق تصل إلى العبادة ، حيث نحمد الله ونشكره فى صلاتنا و قيامنا على ما يسديه إليه من نعم لا تحصى ، ومعروف يمّتد بامتداد الزمان و المكان .

أما القتـل الذى أشار إليه ثمامة ، فهو القصاص من القاتل ، أو الثأر للقتيل وطالما أن الأسير مطلوب دمه قصاصاً فلا لوم على النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا قتله قصاصاً ، واشتفاء منه..

و إذا كان المّن و القتل يمثلان الخيار الأول و الخيار الثانى ، فإن الفداء هو الخيار الثالث ، و معناه ، أن يقوم أهل الأسير بدفع فدية من المال يقبل بها المسلمون كى يطلقوا سراحه .

و قد آثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – الخيار الأول ، وهو الإنعام ، أى المّن على ثمامة و إطلاق سراحه ، وهو ما جعله من خلال معايشته للمسلمين ، يؤثر الإسلام ويعلنه .

obeikandi.com

لقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه : " انطلقوا بثمامة " وذهبوا به إلى نخل قريب من المسجد ، حيث اغتسل و دخل المسجد ، ونطق بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله . و أشهد أن محمداً رسول الله .

هكذا دخل صحابى جديد إلى دائرة الإسلام السمحاء ، بعد أن كان معادياً شديد العداء للإسلام و المسلمين ، و أعلن عن مشاعره صراحة قائلاً يا محمد و الله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ .

- ❖ ووالله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الأديان إلىّ
- ❖ ووالله ماكان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ..

وهنا نراه يحب محمداً بعد بغض ، ويحب دينه بعد بغض ، و يحب بلده بعد بغض مسجلاً مشاعر إنسانية حقيقية ترتبط بالصراع بين الحق و الباطل ، وتؤكد على أن الرجل الذى يفىء إلى الحق هو رجل مكتمل المشاعر و العواطف لا يكتمها ولا يخفيها مهما كانت حادة أو عنيفة ..

و تؤكد فى الوقت ذاته على حب الإنسان للإنسان الذى هو نبى ، و حب الإنسان للدين الذى هو العقيدة ، و حب الإنسان للبلد الذى هو الوطن ..وهو حب مشروع لمن يملك المشاعر الإنسانية الحقيقية .

لقد تمنى ثمامة أن يعتمر. فبشره الرسول – صلى الله عليه وسلم – و أمره أن يعتمر.

وفى مكة قالوا له : صبأت ، أى رجعت عن دين آبائك وهو الوثنية .

و لكنه أفحمهم قائلاً : لقد أسلمت مع محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأقسم ألا يأتيهم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم . رضى الله عن ثمامة و الصحابة أجمعين .

**** ****

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته.

٢- تيسير علم المعاني

٣- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق .

٤- محمد- صلى الله عليه وسلم -في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) .

٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية .

٦- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة).

٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث .

٨- مدرسة البيان في النثر الحديث .

٩- تطور الشعر العربي في العصر الحديث .

ثانيا : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :

١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل .

٢ - وجوه عربية وإسلامية .

٣ - الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) .

٤ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) .

٥ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) .

٦ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية).

obeikandl.com

٧ - في رياض النبوة (٣ أجزاء)

٨ - شعراء وقضايا : قراءة في الشعر العربي الحديث .

ثالثا : إسلاميات :

١ - مسلمون لا نخجل (٤ طبعات).

٢ - حراس العقيدة (٣ طبعات).

٣ - الحرب الصليبية العاشرة.

٤ - العودة إلى الينابيع .

٥ - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس .

٦ - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل .

٧ - هتلر الشرق .

٨ - جاهلية صدام وزلزال الخليج .

٧ - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) .

٨ - النظام العسكري في الجزائر.

٩ - حفنة سطور.. شهادة إسلامية .

١٠ - لأقصى في مواجهة أفيال أبرهة .

١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال .

١٢ - تحرير الإسلام .

١٣ - دفاعا عن الإسلام والحرية .

١٤ - التنوير .. رؤية إسلامية .

١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري .

١٦ - العصا الغليظة .

١٧ - واسلمي يا مصر.

obeikandl.com

١٨ – ثقافة التنمية : المنهج . الخصائص . التطبيقات .

رابعا : كتب أدبية ونقدية :

١. الغروب المستحيل (سيرة كاتب) .
٢. رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) .
٣. الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٤. موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة) .
٥. حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسوريا
٦. لويس عوض الأسطورة والحقيقة . حوار مع الرواية في مصر وسورية .
٧. الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .
٨. إنسانية الأدب الإسلامي .
٩. حصيرة الريف الواسعة .
١٠. أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة .

خامسا : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية .

سادساً: كتب للأطفال :

واحد من سبعة .

سابعاً : كتب محققة :

١- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية .

٢- أحسن ما كتبت .

ثامنا – كتب معدة للنشر:

١- التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته .

obeikandl.com

٢ - الحداثة العربية : المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) .

٣- الإبادة والمقاومة : الشعب الفلسطيني لا يموت .

٤ - الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية) .

٥ - خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة) .

٦ - الحلم والدهشة (قراءة أدبية) .

٧ - العمامة والثقافة : دفاع الإسلام وهجوم العلمانية .

٨ - اللحم الإسلامي المستباح .

٩ - حضرت التبعية .. وغابت الهوية .

١٠ - صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا) .

١١- انتصار الدم على السيف .

١٢ - سورة الأنفال.

١٣ - نداء الفطرة .

١٤ - عباد الرحمن وعباد السلطان .

١٥ - اخلع إسلامك .. تعش آمنا ؟!

١٦ - ثقافة تزغيط البط !

١٧ - محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !

١٨ - القيم الإسلامية في رسائل النور.

١٩ - كهنة آمون !

٢٠ - المدافعة والمداولة - قراءة في الأفق الثقافي العام .

obeikandl.com

المحتويات

م	الاسم	رقم الصفحة
١.	الطمع في رحمة الله-١	٣
٢.	الطمع في رحمة الله-٢	٦
٣.	القول والفعل	٩
٤.	دعاء السفر عند الحج	١٢
٥.	الحج المبرور	١٥
٦.	الحج مرة واحدة	١٨
٧.	من حجة الوداع	٢١
٨.	التلبية وصفتها	٢٤
٩.	دعاء العودة من الحج والجهاد والسفر	٣٠
١٠.	اتقاء الشبهات	٣٢
١١.	البر والأثم	٣٥
١٢.	أهل الصفة -١	٣٨
١٣.	أهل الصفة -٢	٤١
١٤.	دفاع الملائكة -١	٤٤
١٥.	_دفاع الملائكة -٢	٤٧
١٦.	قصة غزوة بدر والأسرى -١	٥٠

obeikandl.com

م	الاسم	رقم الصفحة
١٧.	قصة غزوة بدر والأسرى -٢	٥٣
١٨.	قصة غزوة بدر والأسرى -٣	٥٦
١٩.	قصة إسلام صحابي جليل -١	٥٩
٢٠.	قصة إسلام صحابي جليل -٢	٦٢
٢١.	ريحه مباركة	٦٥
٢٢.	إيمان الفطرة -١	٦٨
٢٣.	إيمان الفطرة -٢	٧١
٢٤.	أول من صلى إلى الكعبة -١	٧٤
٢٥.	أول من صلى إلى الكعبة -٢	٧٨
٢٦.	الاسلام عند الموت -١	٨١
٢٧.	الاسلام عند الموت -٢	٨٤
٢٨.	الصحابة والحمى -١	٨٧
٢٩.	الصحابة والحمى -٢	٩٠
٣٠.	ألف دينار في البحر	٩٣
٣١.	جبريل عليه السلام يعلم الصحابة	٩٩
٣٢.	القرد والخمر	١٠٥
٣٣.	الصبر على البلاد	١١٠
٣٤.	الابتلاء والرحمة	١١٥

obeikandl.com

م	الاســـم	رقم الصفحة
٣٥.	سبق عكاشة	١٢٠
٣٦.	الصدقة في غير موضعها	١٢٦
٣٧.	النعيم والجحيم	١٢٩
٣٨.	رحمة الله	١٣٣
٣٩.	الحب في الله	١٣٧
٤٠.	قوموا إلى الجنة -١	١٤٠
٤١.	قوموا إلى الجنة -٢	١٤٤
٤٢.	رجل من بني حنيفة -١	١٤٧
٤٣.	رجل من بني حنيفة -٢	١٥٠
٤٤.	كتب للمؤلف	١٥٣

obeikandl.com

obeikandl.com